اللغة العربية والنحو العربي
المحطات الكبرى

د. الشريف ولد أحمد*

* أستاذ النحو والصرف المساعد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية دبي

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث بالدراسة شقي العنوان ''اللغة العربية والنحو العربي: المحطات الكبرى''.

بينا في حديثنا عن اللغة العربية أن الدراسات التي تناولت وضع اللغة العربية الحالي، يتجاذبها اتجاهان رئيسيان:

الاتجاه الأول: ينادي أصحابه بالنهوض باللغة العربية، والتغني بأمجادها وقدسيتها. ويقوم هذا الاتجاه على الشعارات العاطفية، والنزعات القومية، متخذا من ماضي اللغة المشرق منطلقا، مؤكدا أنها تحمل في طياتها عناصر القوة وآليات الصراع.

الاتجاه الثاني: وقد حاول أنصاره أن يتخذوا من واقع اللغة منطلقا، ويجعلوا من التحديات المعاصرة خطرا يجب مواجهته، واصفين أطروحات الاتجاه الأول بأنها مغلوطة أو زائفة، وأن اللغة تواجه حملات شرسة تستوجب العمل على كافة الجبهات، وتتطلب تضافر الجهود لصد هذا الخطر قبل فوات الأوان لانتشال اللغة العربية، التي تعد آخر قلعة من قلاع الأمة العربية والإسلامية، بوصفها لسان القرآن، وترجمان السنة النبوية، ورمز الهوية العربية.

ثم أشفعنا الحديث عن هذين الاتجاهين بمقترح ثالث - تمثل في رأي العبد الفقير - إذا جاز لي أن أسميه ''رأيا على استحياء''، متوجسا خيفة أن يصفني البعض بـ ''المغرور''، أو أنني ''تزبّبت قبل أن أتحصرم''، ويأخذ هذا الرأي من الاتجاهين بطرف، فيأخذ من الأول حميته وغيرته على اللغة، ويأخذ من الثاني تشبثه بالواقع، وبعده عن الحلول العاطفية، واستشعاره الخطر الذي يهدد اللغة، إضافة إلى خطة إصلاحية، تتلخص محاورها في: التوعية اللغوية الشاملة بوضع اللغة والتحديات التي تواجهها - العمل على إيجاد فلسفة لغوية عربية واقعية تسعى إلى وضع اللغة العربية في مكانتها اللائقة بها - مراجعة السياسات

التعليمية التي كانت السبب في وضع اللغة الحالي - غرس العزّة الإسلامية والقومية المفقودة التي كانت الثغرة التي تسلل منها الداء إلى جسم اللغة.

أما الشق الثاني من العنوان والذي هو "النحو العربي"، فقد حاولنا من خلاله تقصي مسيرة النحو العربي، منذ احتضنته مدرستا البصرة والكوفة وليدا، حتى استغلظ فاستوى على سوقه على يد الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه اللذين وضعا أسسه وأرسيا قواعده.ثم توالت الجهود بعدهما منصَبَّة على "كتاب سيبويه" لإيضاح غامضه وفك رموزه وحل مشكلاته واختصار مطوّلاته، وقد سمينا هذه المرحلة بـ "الجهود التأسيسية".

ثم تلت هذه المرحلة مرحلة أخرى أطلقنا عليها "مرحلة النضج والاكتمال". ويمثل هذه المرحلة: أبو الفتح عثمان بن جني وابن فارس، اللذان نظرا إلى اللغة نظرات تأملية، وحاولا استكناه بعض أسرارها، واستنطاق جوانب من مخبآتها في الاشتقاق، وأصول الكلمات، والعلاقة بين الحروف والمعاني التي وضعت لها، وأصول معاني الكلمات ... إلخ، مما بينا جزءا منه في ثنايا النص.

ثم ختمنا مسيرة النحو برحلته إلى الأندلس على يد محمد بن مالك الجياني الأندلسي، وأطلقنا عليها "مرحلة النضج والاحتراق". وهي مرحلة خرج فيها النحو من ربقة "الكتاب"، أي هيمنة النحو في ثوبه "السيبويهي"، التي دامت مدة خمسة قرون.

وقد بينا أنها مرحلة احتلت فيها مؤلفات ابن مالك مكانة "كتاب سيبويه"، وتمتاز هذه المرحلة بالتحرر من المذهبية النحوية، والاعتماد على الشروح والمتون، والاجتهاد في بعض المسائل النحوية، والحرص على الوضوح في العرض والتقديم.

خطة البحث

I. تحديدات أولية

II. الجهود التأسيسية : الخليل وسيبويه

III. مرحلة النضج والاكتمال : ابن جني - ابن فارس

IV. النحو في الأندلس : ابن مالك ومدرسته النحوية

V. أسباب ضعف اللغة العربية في العصر الحاضر

VI. خاتمة

VII. ثبت بأسماء المصادر والمراجع

I. تحديدات أولية

لسنا في هذا المقام بصدد تقصي خطى من فرط من اللغويين أو الباحثين ممن دأب يتغنى بأمجاد اللغة العربية، يذكر من سعتها وامتلاكها قدرات ذاتية تبوئها مكانة لائقة ضمن لغات العالم، ففي ما مضى من المؤلفات في هذا المجال غُنية.

كما لن نلهث وراء المتحاملين على اللغة العربية يسِمونها بالعجز والقصور عن التعبير عن علوم العصر.

ولن نكون بين ذينك الاتجاهين متفرجين لنعلم أيُّ الفريقين خيرٌ مقاما وأحسن نديا.

بيد أن الفريقين ـ في رأينا – لم يلامسا واقع اللغة، ولم يصيبا حزَّ المفصل، بل حاما حوله، وانقسمت دراساتهما إلى قسمين:

١ – قسم قدم دراسات إنشائية تبجيلية، تذكر من قداسة اللغة وفضلها على سائر اللغات....

٢ – أما القسم الثاني فيتمثل في دراسات حاول أصحابها أن يتناولوا اللغة في التراث القديم، ثم يلبسوها ثوب الحداثة والعصرنة، فكان حظهم مما سعوا إليه حظ المغبون.

ونحن هنا لا نغض من شأن أيّ من الفريقين، كما لا ندعي أن ما نثيره من تساؤلات، ونطرحه من إشكالات، ونتقدم به من فرضيات هي حلول ناجعة أو بلاسم شافية، وإنما هو مقاربة للحل، تتخذ من واقع اللغة منطلقا، ومن الحقائق العلمية، والمسلمات التاريخية غاية ووسيلة، بعيدا عن الحلول العاطفية، والعيش على الموائد الأبوية، متمثلين قول شاعر الحماسة:

لسنـــا وإن كرمـــت أوائلنـــا يومـا عـلى الأحسـاب نتكـــلُ

نبنـــي كمـــا كانـــت أوائلنـــا تبني ونفعـــل مثـل مـا فعلـــوا

وستكون أمامنا جملة من التساؤلات، رأينا أنه يتحتم علينا – حتى لا ندور في فلك سلفنا من الفريقين – الإجابة عنها، إذا أردنا أن نعرف المشكلة التي تعاني منها اللغة في العصر الحاضر.

وقبل الشروع في طرح هذه التساؤلات لا بد أن نعرف للغة حقها، ونرعى لها ذمتها:

١ – فقد احتضنت رسالة الإسلام، وغدت لسان القرآن، وترجمان السنة، وظلت خلال قرون منبعا للثقافة، ورافدا من روافد الحضارة الإسلامية، لا يقتصر دورها على التواصل، وإنما كانت تمد الحضارة – في أزهى عصورها – بآليات التفكير والإبداع في شتى المجالات العلمية والأدبية، بل تجاوزت ذلك إلى مجال الفلسفة والترجمة وغيرها من علوم العصر[1]. وما نهضة الغرب على ما هي عليه اليوم إلا امتدادٌ للحضارة الإسلامية، تحمل في خلاياها جينات العلوم الإسلامية. فهل ينكر علماء الرياضيات في يوم الناس هذا فضل الخوارزمي؟ وهل يتجاسر علماء الطب على القول إنهم لم يبدأوا من حيث انتهى ابن سيناء وأضرابه من أطباء العرب؟.

كما لا ينكر فضلَ الفارابي والكندي وابن رشد – في مجال العلوم الإنسانية – إلا مكابرٌ عنيد!!

٢ – اللغة كانت الوعاء الفكري والثقافي لرسالة الإسلام الخالدة متمثلة في القرآن الكريم، مما أكسبها تقديسا واحتراما من لدن كافة المسلمين عربا كانوا أم غيرهم، وهو أمر حمل كل المعتنقين لهذا الدين على التعريب، سعيا لفهم أساسيات الدين ومقاصد الشرع.

٣ – الوضع الاستراتيجي للغة العربية: إذا نظرنا إلى اللغة العربية في عصرنا الحاضر، نجد أن متكلميها (العرب) – بحكم عوامل اقتصادية وجغرافية – يحظون بثقل استراتيجي لم يحظ به غيرهم، ويمكن أن تجمل أسباب هذا الثقل في النقاط التالية:

أ – الثروة النفطية: ففي دول الخليج احتياط كبير من النفط، بوأ هذه الدول مكانة مرموقة بين دول العالم، ووجه الأنظار والأطماع الغربية إليها.

ب – المنافذ الدولية: فضلا عن ثروة العرب النفطية في دول الخليج، تحظى بعض الدول العربية – في الشام ومصر خاصة – بوضع استراتيجي متميز، يتمثل في كونها تقع على جنبات قناة السويس، التي تعتبر المنفذ الأوحد الذي يربط دول القارة الآسيوية، ذات الكثافة السكانية العالية (حوالي نصف سكان العالم) بباقي

دول العالم، وهي لهذه الوضعية تتمتع بأهمية اقتصادية لا نظير لها في العالم.

ج – كون بعض العرب جيرة للغرب: وهو نصيب عرب دول المغرب العربي، إذ تتقاطع بعض دول هذه المنطقة في حدودها مع بعض الدول الغربية، وهو أمر أكسب هذه الدول وضعا استراتيجيا مهما.

٤ – اللغة العربية – ككل لغات العالم الحية – سهلة التعلم والتعليم (بما تحمل من خصائص ذاتية)، ليس على بني جلدتها فحسب، ولكن على كل شعوب العالم بمختلف أعراقهم وأجناسهم (كثير من أعلام اللغة والنحو والأدب والحديث هم من أصل غير عربي: سيبويه– أبو علي الفارسي – ابن جني – الزمخشري الإستراباذي – أبو نواس – بشار بن برد – أبو الفرج الأصفهاني – البخاري .... وغيرهم).

تلكم هي الخصائص التي تجعل اللغة العربية – في رأيي اعتمادا على استقراءات تاريخية، ومعطيات جغرافية – في مصاف اللغات العالمية الحية التي استطاعت الصمود في وجه التحديات التي واجهتها، كما استطاعت أن تقرض سواها من اللغات أكثر من اقتراضها منها، بحكم احتكاك اللغات وتبادل التأثر والتأثير بينها.

وفي مقابل هذا الرأي نجد صرخات مناوئة من طرف باحثين عرب وغير عرب، يرمون اللغة العربية بالعقم، ويصفونها بالعجز عن مجاراة الحضارة، بما تحمل من تقدم علمي وتقني، ويذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، فيحكم عليها بالموت الذي لا حياة بعده.

فهل تعتبر هذه الدعوى مُشْبِهة على حد تعبير الفقهاء؟ وما حجج القائلين بها؟ وأين يكمن الداء لمعرفة الدواء؟.

هذه أسئلة عامة نرى أنه يمكن صياغتها في قوالب أخرى، تكون أوضح في ذهن القارئ، وألصق بالواقع اللغوي، هي:

١ – لماذا تعيش اللغة العربية اليوم حالة مقلقة من تاريخها، حتى غدت – في رأي بعض الدارسين – تدرج في عداد اللغات الميتة؟.

٢ – لماذا يدعو أعداء اللغة العربية إلى إحلال اللهجة العامية محل الفصحى؟

٣ – لما ذا تذرع أعداء اللغة بصعوبة وتعقيد قواعدها؟

٤ – لما ذا يدعي أعداء اللغة قصورها عن استيعاب علوم العصر؟

تلك أسئلة نحاول الإجابة عنها في معرض حديثنا عن أسباب ضعف اللغة العربية من هذا البحث.

II. - الجهود التأسيسية: الخليل وسيبويه

لا شك أن نشأة علم النحو يكتنفها الغموض، وتتضارب فيها الآراء، وتختلف فيها الروايات – شأن نشأة أي علم في مجتمع يعتمد الرواية الشفهية المصدر الأوحد لكتابة التاريخ.

بيد أن أغلب الروايات – وقد ناقشها سعيد الأفغاني، واستعرض أهم الأقوال فيها في كتابه أصول في النحو (ص ١٦٠– ١٦١ ط: ٣، جامعة دمشق ١٩٦٤) –

قيل: إنَّ أول من وضع علم النحو هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – وأنه دفع إلى أبي الأسود الدؤلي رقعة كتب الكلام كله: اسم وفعل حرف... «وقال لأبي الأسود انح هذا النحو...»، ثم تولى عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي تلميذ أبي الأسود إرساء القواعد وتعميمها، حيث اطَّردت "هو أول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل"[٢]. ثم جاء عيسى بن عمر الثقفي، فجمع جهود سابقيه في النحو في كتابين أسماهما "الجامع" و"الإكمال"[٣]. ثم توالت جهود اللغويين والنحاة أمثال يونس بن حبيب الضبي والأخفش الكبير وأبي عمرو بن العلاء وغيرهم، حتى وصل الأمر إلى الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه.

والذي يهمنا في هذا المقام أن نلقي نظرة – ولو عجلى – على جهود هذين الرجلين لنتبين صنيعهما في النحو العربي.

فقد قيل: "إن تدوين النحو بدأ بكتاب سيبويه وانتهى به"[٤]. ولم يكن "الكتاب" في معظم أبوابه، وأغلب مواده إلا نقلا أمينا لعلم الخليل واستنباطاته وقياساته وإحصاءاته واستقراءاته. فما نصيب هذه القولة من الصحة؟ وكيف يمكن أن نعرف للخليل فضله، دون أن نغمص سيبويه حقه؟

ذلك ما نحاول توضيحه من خلال استعراض آراء الرجلين، وآثارهما النحوية،

ومكانتهما العلمية بين مَن عاصرهم ومَن خَلَف من بعدهم، بادئين بالخليل لكونه الأستاذَ، وحقُّ الأستاذية أسبق.

٢ - ١ - الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي:

أبو عبد الرحمن (١٠٠-١٧٥هـ)، إمام علوم اللغة، الذي اكتشف أسرارها، وشيد بنيانها. قرأ في بداية أمره على أبي عمرو بن العلاء، فأخذ عنه القراءة والشعر وغريب اللغة، ثم سمع من عيسى بن عمر بعض مؤلفاته، التي يقال إنها ناهزت السبعين، ثم سمع من فصحاء العرب، أكلةِ الشيح والقيصوم في بوادي نجد والحجاز. ثم استظهر علم مَن سبقه من علماء اللغة والنحو، حتى رسخت قدمه، وحاز قصب السبق في هذا الفن، فضلا عن ما وهبه الله من ذكاء، وصفه ولد اباه "أنه يكاد يكون من قبيل الأساطير"[٥].

ونشير هنا إلى أن كثيرا من الدارسين والمختصين في مجال اللغة لا يعرفون عن الخليل سوى أنه مؤسس علم العروض، وإن كانوا أكثر اطِّلاعا وأوسع باعا، علموا أنه مؤلف "العين"، وما عرفوا عن هذا الكتاب إلا اسمه.

والحق أن علماء اللغة قدماء ومحدثين، لم يعرفوا الخليل حق معرفته، ولم يبوئوه المكانة اللائقة به، ومع ذلك فما برح العلماء ينهلون من حياضه، ويتقصون آثاره، فهذا النضر بن شميل، من علماء اللغة المتقدمين، يعرف له فضله، حين يقول عنه: "أُكلت الدنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه وهو في خص لا يشعر به"[٦]. وقد أجمع معاصروه أنه لم يبلغ أحد قبله ولا بعده مبلغه في الذكاء والورع، والأخذ بأزمة العلوم، فهذا أبو الطيب اللغوي يقول: "إنه لم يك قبله ولا بعده مثله، ولم يك للعرب بعد الصحابة أذكى منه، فكان أعلم الناس، وأفضل الناس وأتقى الناس، فكان مفتاح العلوم ومصرفها"[٧].

ولم يقتصر الأمر على شهادات معاصريه له ومَن بعدهم من علماء اللغة الأقدمين، بل توالت الشهادات له جيلا بعد جيل، وظل ذكره مقترنا باللغة العربية والنحو العربي على مر العصور، حتى من طرف بعض كبار النحاة المعاصرين، فهذا الدكتور شوقي ضيف - رحمه الله - يعزز شهادة الدكتور ولد اباه السابقة في شأن حيازة الخليل مفاتيح أسرار اللغة، يقول إنه: "لما لمس اللغة بعصاه السحرية انفتحت أمامه أغلاقها، وفارقتها طلاسمها"[٨].

ومهما قيل عن الخليل ومكانته العلمية، وفتحه ما استغلق، وتوضيحه ما انبهم من علوم اللغة بمختلف فروعها المعجمية والصوتية والنحوية، واختراعه لعلم العروض ... فإنه لا بد من معرفة ما أضافه هذا الرجل، فاستحق به هذا الذكر، واكتشف به نواميس اللغة حتى أعطته رَسَنَها، وغدا صيته مقترنا باللغة لا ينفك عنها.

الحق أن الخليل اخترق جدار اللغة، واستنبط مقاييس التركيب العام للكلام، فرجع إلى أجزاء الكلام ففككها، ورد كل كلمة إلى أصولها، وتنبه إلى التطور التاريخي للغة، وكان يتصرف في العربية تصرف المهندس الميكانيكي الحاذق، الذي يأخذ الجهاز المحكم الصنع فيفككه إلى أجزائه الأصلية، حتى إذا آض قطعا متناثرة، أعاد تركيبه من جديد على هيئته الأصلية قبل التفكيك.

ذلك هو السبيل الذي توسل به هذا العبقري إلى رد المضعف الثلاثي إلى الثنائي، ومن الثنائي إلى الثلاثي، حتى إذا استوفاه انتقل إلى مزيد الثلاثي وهكذا ... فالعملية تبدأ من تضعيف عين الكلمة، التي يتم بها نقل الثنائي إلى الثلاثي، بدءا بالثنائي فالمضعف فغير المضعف ...إلخ حسب التسلسل التصاعدي؛ من الأقل إلى الأكثر.

يقول الخليل إن "العرب تشتق في كثير من كلامها أبنية المضاعف من بناء الثنائي المثقل بحرفي التضعيف، ومن الثلاثي المعتل..."[٩].

ومن الملاحظات الهامة التي توصل إليها الخليل، وأفاد منها كثيرا أصحابُ المعاجم بعده على مر العصور، طريقة "التقليب" التي استطاع بواسطتها معرفة المستعمل من العربية والمهمل، اعتمادا على أعداد حروف الكلمة، مع تبديل مواضع حروفها لأقصى الحدود الممكنة، مثل: علم، عمل، معل، ملع، لعم، لمع، ثم أشفع هذه العملية بتبيين المستعمل والمهمل من هذه الألفاظ.

وقد قادته هذه الطريقة إلى عملية إحصائية شاملة لمواد اللغة العربية في منتهى الدقة، مهدت الطريق لمن جاء بعده من أصحاب المعجمات المطولة للحصول على مواد مصنفاتهم دون بذل جهد يذكر[١٠]. قال الخليل موضحا طريقة هذه العملية الإحصائية: "واعلم أن الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين مثل: دق، قد... والكلمة الثلاثية الصحيحة تتصرف على ستة أوجه... نحو: ضرب، ضبر، ربض، رضب، برض، بضر. قال: والكلمة الرباعية

تتصرف على أربعة وعشرين وجها، وذلك أن حروفها ضُرِبت وهي أربعة أحرف في وجوه الثلاثي الصحيح وهي ستة فصارت أربعة وعشرين: عبقر وتقليبها= ٦، قعبر وتقليبها= ٦، بعقر وتقليبها= ٦، رقعب وتقليبها=٦. فهذه أربعة وعشرون وجها أغلبها مهمل".

قال الخليل: "والكلمة الخماسية تتصرف على مائة وعشرين وجها، وذلك أن حروفها ضربت وهي خمسة أحرف في وجوه الرباعي وهي أربعة وعشرون فتصير مائة وعشرين وجها، يستعمل أقلها ويلغى أكثرها"[١١].

ولم يقف الخليل عند حد الإحصاء الدقيق، والملاحظة المرئية لاستكناه أسرار اللغة في بنية الكلمات، بل تجاوز ذلك إلى أن أخذ الحروف العربية كلها وذاقها، وحلّلها في مختبر صوتي لا يملك من الوسائل سوى ذوق سليم وسلامة من فيروسات اللُّكنة والعجمة، غير أن نتائج هذه التحاليل أظهرت عبقرية فذة، وذكاء خارقا لهذا الرجل، الذي استطاع أن يقدم في مستهل كتابه "العين" بواكير معلومات صوتية لم تتوصل إلى بعضها الدراسات الألسنية الحديثة – رغم التطور الكبير في هذا المجال، وتسخير وسائل تقنية غاية في الدقة – إلا بعد قرون عديدة من عصر الخليل.

وقد دفع الخليل إلى ذواق اللغة أنه لما أراد أن يؤلف كتابه الموسوم بـ"العين"، أعمل فكره في التسلسل الذي سيبدأ به المعجم "فلم يمكنه أن يبتدئ التأليف من أول ا ب ت ث وهو الألف، لأن الألف حرف معتل، فلما فاته الحرف الأول كره أن يبتدئ بالثاني وهو الباء إلا بحجة، وبعد استقصاء. فدبر ونظر إلى الحروف كلها، وذاقها، فصير أولاها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق. وكان ذوقه إياها أنه إذا أراد أن يذوق الحرف فتح فاه بالألف، ثم أظهر الحرف، نحو: أت، أح ، أع، فوجد العين أقصاها في الحلق، فجعلها أول الكتاب، ثم ما قرب منها: الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم"[١٢].

فأنت تحس حين تسمع وصفه لمخارج الحروف كأنه قام بتشريح دقيق للجهاز الصوتي، فعرف تركيبه، وأجزاءه، وما اشتمل عليه من أحياز ومدارج، فاستطاع أن يحدد مخارج الحروف كلها بدقة متناهية[١٣].

وكان مما انتبه إليه الخليل أثناء تحليله لأجزاء الكلمة، أنها لا تتألف من أجزاء بسيطة، وهي الحروف التي تكوِّن الوحدات الصوتية، بل إن فيها وحدات أخرى، وهي المقاطع،

عبَّر عنها في علم العروض بالأسباب والأوتاد. وهذا الأمر لم يسبقه إليه أحد. قال عنه محمد بن سلام الجمحي: "فاستخرج من العروض واستنبط منه، ومن علله ما لم يستخرجه أحد، ولم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم"[١٤].

ولم تقتصر ملاحظات الخليل على التركيبة المعجمية والصوتية للكلمة، بل تجاوزت ذلك إلى مستوى التركيب في الجملة، باعتبارها الخيط الذي تنتظم فيه الكلمات. فألقى نظرة على كلام العرب، فاستخلص أنه يسير على نسق محكم وفق ضوابط محددة، فشرع يستنتج هذه القواعد، ويستنبط العوامل المؤثرة في وحدات هذا الكلام، استقراء من كلام فصحاء العرب.

وهذه العوامل هي التي تؤثر في نهايات الكلمات، واصطلح عليها باسم "الإعراب". فخلص إلى أن هناك أربعة عوامل هي:

١ – العامل المعنوي: وهو الذي يؤثر في الكلام حين يتجرد من العوامل الأخرى، ولذلك يُلجأ إليه في بداية، أو استئناف الكلام، وهو الذي يعمل في المبتدإ، وفي المضارع المجرد من النواصب والجوازم، لكونهما مجردين من أي عامل آخر.

٢ – العوامل الظاهرة: وتتمثل في الأفعال، والنواسخ الفعلية والحرفية، والنواصب، والجوازم، وحروف الجر... وهذه هي أقوى العوامل وأكثرها عملا في اللغة.

٣ – العوامل المحذوفة: وهي التي عملت، لكنها حذفت لأمر عارض كالضرورة الشعرية، أو لاختصار الكلام، أو التزمت العرب حذفها في حالات معينة، يدل على كل ذلك سياق الكلام. وقد مثل الخليل لهذا النوع بقول الشاعر:

ألا رجلا جزاه الله خيرا يدل على محصَّلةٍ تبيتُ

فقال إن رجلا منصوبة بـ "أروني محذوفة".

٤ – العوامل المفترضة[١٥]: وهي التي يُلجأ إليها حين لا يتأتى تقدير أي: من العوامل الأخرى. ومن أمثلتها النصب على الترحم، والدعاء والمدح والذم، والنصب بنزع الخافض، والمجرور بالمجاورة ... إلخ، ويمثل للجر بالمجاورة بقول امرئ القيس[١٦]:

كأن أبانا في عرانين وبله كبير أناس في بجاد مزمل

وحينما أراد الخليل أن يتحدث عن العلل النحوية، صرح أن العرب نطقوا لغتهم على سجيتها، دون الحاجة إلى التحليل، وأنه هو عَلَّلَ ما استطاع تعليله، فإن وافق تعليله ما أرادت العرب فذلك مبتغاه، وإن جانف الصواب، فلعل غيره من اللغويين يأتي بها. قال الخليل: "إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم ينقل عنها ذلك. واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه، فإن كنت أصبت العلة فهو الذي التمست، وإن تكن هناك علة له فمثلي في ذلك رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء، عجيبة النظم والأقسام، وقد صحت عندي حكمة بانيها بالخبر الصادق، والبراهين الواضحة، والحجج اللائحة. فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها، قال إنما فعل هذا لعلة كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا، لعلة سنحت له، وخطرت بباله محتملة لذلك. فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير العلة ... فإن سنح لغيري علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت به"[١٧].

ومجمل القول إن الخليل جمع علم من سبقه من علماء اللغة، واستطاع بملاحظته واستقرائه وقياسه أن يصوغ علم اللغة في قالب علم متكامل، له أسسه ومقاييسه، كان مصدر إلهام اللغويين والنحاة والعروضيين وفقهاء اللغة، ينهلون منه، كل على قدر آنيته.

ويعد كتاب "العين" و"كتاب سيبويه" أهم مصدرين لموروث الخليل الفكري[١٨].

واستنادا لهذا فإنه يمكننا القول دون مبالغة إن فكر الخليل كان نقلة نوعية، حولت علوم اللغة من طور التأسيس إلى طور النضج والاكتمال.

٢ - ٢ - سيبويه و"الكتاب":

هو عمرو بن عثمان بن قنبر، أبو بشر (١٤٨-١٨٠هـ)، إمام النحو بالبصرة، أخذ النحو عن الخليل، وبرع فيه، اشتهر بكتابه المعروف بـ"الكتاب"، الذي قيل إنه "قرآن النحو". فما السر في هذه التسمية؟ وما السبب الكامن وراء الشهرة التي حظي بها هذا الكتاب منذ ظهوره وحتى اليوم؟

يعد كتاب سيبويه بحق ظاهرة نحوية جديرة بالدراسة، إذ يعتبره النحاة مدونة نحوية،

جمعت جهود النحويين السابقين لسيبويه. فهو حصيلة قرن من فكر العلماء وآرائهم، بدءا من أبي الأسود الدؤلي وانتهاء بسيبويه.

ويمكن أن نلخص أبرز من شاركوا في هذه الموسوعة بآرائهم وأفكارهم في النحاة التالية أسماؤهم:

* عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت ١١٧هـ)
* عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩)
* أبو عمرو بن العلاء (١٥٤هـ)
* يونس بن حبيب الضبي (١٨٣هـ)
* الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٤هـ)

وقد جمع سيبويه جهود هؤلاء النحاة، وأحسن ترتيبها وتنسيقها وتبويبها. وقد أجمع معاصروه أنه كان أمينا في النقل، ثقة في الرواية. وكان أغلب مادة الكتاب، ما رواه عن الخليل، حتى قيل عنه إنه جمع ألف ورقة من علم الخليل، وروى عن يونس بن حبيب الضبي نحو مائتي مسألة، وعن أبي عمرو بن العلاء زهاء أربعين، وقرابة العشرين عن عيسى بن عمر، وعشرة عن ابن أبي إسحاق الحضرمي[١٩].

وحسب سيبويه أن له فضل السبق إلى هذه المادة، وصياغتها في كتاب، لم يسبقه في فنه أجمع ولا أوسع ولا أوفر مادة منه. وأنه صاغ علم النحو صياغة كُتب لها أن تبقى على ما هي عليه، لم يجرؤ سابق ولا لاحق على تحويرها ولا تغييرها، فضلا عن زيادة فيها أو نقصان. وإنما تناول المؤلفون "الكتاب" في جوانب مختلفة منه، متناولا كل مؤلِّف منه الزاوية التي يرى فيها غموضا، أو تعقيدا، أو تصحيحا لتصحيف، أو تصويبا لتحريف، رأى أنه لحق الكتاب من طرف بعض النساخ.

وقد تهيب النحاة كتاب سيبويه برهة من الوقت "فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا"، فكان يقال لمن أراد أن يقرأه "هل ركبت البحر؟"، مبالغة في ارتقائه المركبَ الصعب، لما يلاقيه من صعوبة بالغة في هذه الدراسة.

ثم ما لبث أن تتابعت جهود العلماء بعد ذلك لإيضاح غامضه وفك رموزه، واختصار ما كان فيه من إسهاب ، سعيا إلى تسهيله، وروض حَرونِه، وتقريبه من القراء.

ويمكن تلخيص أهم جهود العلماء لتسهيل الكتاب فيما يلي:

١ – شروح الكتاب: وقد بلغ عددها – حسب ما وقفنا عليه من المصادر – ثلاثة وعشرين شرحا. بدأت بشرح تلميذ سيبويه، أبي الحسن سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥هـ)، وانتهاء بشرح أبي العباس أحمد بن محمد العتابي الأندلسي (٧٧٦هـ)[٢٠].

٢ – شروح تناولت مشكلاته ونكته وأبنيته: وقد بلغ عددها – حسب نفس المصادر – أحد عشر شرحا. بدأت بشرح أبي عمر صالح بن إسحاق الجرمي (ت ٢٢٥هـ)، وانتهت بشرح محمد بن علي بن الفخار الجذامي المالقي (٧٥٤هـ)[٢١].

٣ – شروح شواهد الكتاب: وقد بلغ عددها – حسب نفس المصادر – ثلاثة عشر شرحا، بدأت بشرح أبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، وانتهت بشرح أبي عبد الله محمد بن علي الشلوبين (ت: حوالي ٦٦٠هـ)[٢٢].

٤ – اختصارات الكتاب أو اختصارات شروحه: ولم يتجاوز عددها ثلاثة شروح، هي:

* مختصر كتاب سيبويه: لصالح بن إسحاق الجرمي (ت ٢٢٥هـ)، وله شرحان: "تفسير أبنية الكتاب"، وشرح "غريب سيبويه"، وهما أقدم شرحين للكتاب.
* مختصر "لباب الكتاب" لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (٦١٦هـ).
* مختصر لشرح الصفار للكتاب لأبي حيان محمد بن يوسف النحوي الأندلسي المفسر (ت ٧٤٥هـ)، سماه "الإسفار الملخص من شرح سيبويه للصفار"[٢٣].

٥ – الاعتراضات على الكتاب أو الرد على تلك الاعتراضات:

ولم يتجاوز عدد مؤلفيها أربعة، هم:

* أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، له اعتراضات على أكثر من مائة وثلاثين مسألة، انتقد فيها سيبويه. وقد اتخذت اعتراضاته أشكالا مختلفة، يمكن تلخيص صيغها في العبارات التالية: "القول ليس عندي كما قال، أو أنه بعيد، أو محال، أو غلط، أو خطأ فاحش ... إلخ". ويقال إن المبرد بعد تأليفه لكتاب

"المقتضب" – الذي اختصر فيه "الكتاب" – اعتذر عن أكثر اعتراضاته على سيبويه، ووصفها بأنها هفوات الشباب[٢٤].

وقد رد أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد المصري، المعروف بابن ولاد (ت ٣٣٢هـ) على اعتراضات المبرد على سيبويه بكتاب سماه "الانتصار لسيبويه"، وفند كل الاعتراضات غير مسألتين[٢٥].

* أبو سعيد السيرافي، الحسن بن عبد الله بن المرزبان، النحوي الفقيه الزاهد (ت٣٦٨هـ)، له "شرح كتاب سيبويه"، أجمع العلماء أنه كان أفضل شرح للكتاب، حيث حرص على تصحيح النص وتحقيقه، وتوضيح غامضه واستكمال جوانبه، كما التزم في شرحه الدفاع عن سيبويه في كل ما انتقده عليه المبرد، متسلحا بسعة الاطلاع، وإلهام الحجة، وطول الباع في علوم اللغة[٢٦].
* أبو الحسين، سليمان بن محمد بن عبد الله المالقي، المعروف بابن الطراوة (٥٢٨هـ). أخذ النحو عن السهيلي والأعلم الشنتمري، له آراء في النحو، خالف فيها الجمهور، وله كتاب "المقدمات على الكتاب"، اعترض فيه بعض المسائل على سيبويه[٢٧].
* علي بن محمد بن علي بن يوسف الكتامي الإشبيلي، المعروف بابن الضائع (ت٦٨٠هـ). له "شرح كتاب سيبويه"، رد فيه على اعتراضات ابن الطراوة على سيبويه[٢٨].

III. - مرحلة النضج والاكتمال: ابن جني - ابن فارس

لم نعتمد في هذه النقطة، ولا سابقتها على التحقيب الزمني، بحيث نعطي كل فترة زمنية ما يناسبها من النحاة، فالأمر لا يخضع لعامل الزمن، وإنما يخضع لتتبع ظواهر لغوية، أو نحوية، قد يتناولها رجال عديدون في فترة واحدة، ثم لا تحظى بمن يتناولها خلال فترات أخرى.

فنحن نتتبع الخط البياني للنحو، متقصين آثار من شاركوا في إحكام صنعته، واقفين عند نحاة نرى أنهم مثلوا طفرات، وارتقوا درجات في مدارج السلم النحوي، بما أوتوا من نظرات فاحصة، استطاعوا بواسطتها استكناه بعض أسرار هذه اللغة.

فلم يكن اختيارنا للخليل وسيبويه وغيرهم من قبيل الاعتباط، وإنما لكونهم لامسوا اللغة بعصيهم السحرية، فكشفت لهم أسرارها، وأخرجت لهم أثقالها. فما السر وراء اختيارنا لأبي الفتح بن جني وابن فارس في هذه المرحلة؟

٣ - ١ - أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ):

له واحد وخمسون (٥١) مؤلفا في علوم اللغة. صحب أبا علي الفارسي أربعين سنة حتى تصدر في النحو. شهد له معاصروه ومَن بعدهم برسوخ القدم وعلو الشأن، قال عنه المتنبي، وقد صحبه وعرف قدره: "هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس"[٢٩]. كما شهد له الثعالبي بالتميز والرئاسة في علوم اللغة: "إنه القطب في لسان العرب، وإليه تنتهي الرئاسة في الأدب[٣٠]". وكان ابن منظور الإفريقي يكثر العزو إليه في اللسان، وربما أردف قائلا: "ولا أعلم هذا القول من غير ابن جني"[٣١]. كما أغار على فوائده وبحوثه اللغوية جمع من اللغويين والمؤلفين، دون عزو إليه، منهم: ابن سيده في المحكم، وابن سنان الخفاجي في كتابه "سر الفصاحة"، وابن الأثير في "المثل السائر"[٣٢].

كتاب الخصائص:

تتجلى عبقرية ابن جني في كونه ثاني رجل بعد الخليل بن أحمد استطاع أن يستنطق ألفاظ اللغة ليكشف سر العلاقة بين أصوات الحروف والمعاني الدالة عليها.

ولا شك أن الخليل كان له فضل السبق إلى هذه الملاحظة، غير أنه لم يعللها، ولم يوظفها في سياقات تطبيقية، ليتضح سر العلاقة بين الدال والمدلول، أو بين الأصوات ومعانيها، فنراه مثلا يقول: "كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا (صرَّ)، وتوهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا (صَرْصَر)"[٣٣]. فتراه في هذا المثال يعلل العلاقة القائمة بين الأصوات ومعانيها الوضعية، فصوت الجندب متواصل، على نمط واحد، غير منقطع، فعبر عنه العرب بقولهم "صَرَّ"، وعلله الخليل بقوله "استطالة ومدًّا"، أما صوت البازي فعبر عنه العرب بلفظ "صَرْصَرَ"، وعلله الخليل بقوله "تقطيعا" إشارة إلى ما في صوته من تقطيع. وكان تعليل الخليل لكلا الصوتين مستفتحا بعبارة "وتوهموا" التي تدل على الوهم الذي يفيد ضعف الظن، ربما لكون الخليل – نيابة عن العرب – يتوهم ذلك، أو

لأن الخليل نفسه لم يتيقن بعد أن هناك علاقة عضوية بين الأصوات ومدلولاتها، ربما لأن الفكرة لا تزال تختمر في ذهنه، فلم تتبلور بعد.

ولم يقتصر الخليل على هذا الموضع، بل نرى سيبويه ينقل عنه تعليلات مماثلة في مواضع عديدة من الكتاب. كما نرى سيبويه نفسه يتحدث في ثنايا كتابه عن هذه العلاقة، ويعقد لها بابين مستقلين[٣٤]، بالإضافة إلى إشارات في أبواب مختلفة من الكتاب، غير أنه كان يكتفي بحصر الألفاظ دون تعليل كاف.

وإذا كان الخليل وتلميذه سيبويه قد تنبها إلى هذه الظاهرة، وتحدثا عنها بعبارات مبتسرة، فإن ابن جني قد وقف عندها وقفة متأنية، شارحا سر هذه العلاقة، معللا لها، حتى ليجعلك، حين تسمعه يحلل ويبرر، وينتقل من جزئيات إلى أخرى بشكل متسلسل، وبعبارات سهلة، كأنه يقودك إلى استخلاص نتائج منطقية، أو رياضية، تجد لسماعها انشراحا ونشوة.

استهل ابن جني شرحه لهذه العلاقة بإحالة العهدة إلى أهلها، ورد الفضل إلى ذويه، معترفا للخليل وسيبويه بفضل السبق، فقال: "اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له، والاعتراف بصحته"[٣٥]. ثم شرع يشرح دلالة الكلمة - باعتبارها مجموعة أصوات، لها بنية وهيئة معينة، وعلاقة هذه الدلالة بأصوات حروف الكلمة - بقوله: "وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت (طريق) الأحداث المعَبَّر عنها، فيعدلونها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره"[٣٦].

كانت هذه هي القاعدة العامة التي انطلق منها، وأردف ذلك بضرب الأمثلة على تناغم وتناسب الأصوات مع المعاني، أو الدوال مع مدلولاتها.

وسنقتصر على تقديم بعض الأمثلة التي ساقها، سعيا منه إلى تعميم هذه القاعدة. قال ابن جني: "ومن ذلك قولهم: الوسيلة والوصيلة، والصاد - كما ترى - أقوى صوتا من السين، لما فيها من الاستعلاء، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة، وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة، بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء ومماسَّته له، وكونه من أكثر الأحوال بعضا له، كاتصال الأعضاء بالإنسان، وهي أبعاضه، ونحو ذلك.

والتوسل معنى يضعف، ويصغر أن يكون المتوسِّل جزءا أو كالجزء من المتوسَّل إليه. وهذا واضح، فجعلوا الصاد لقوتها للمعنى الأقوى، والسين لضعفها، للمعنى الأضعف"[٣٧].

فانظر كيف استطاع أن يربط أصوات كل كلمة بمعانيها، فأوضح أن حروف الصفير، ذات الأصوات الشديدة، كالصاد مثلا، يعبر بها عن المعنى الأقوى، كالصلة، لما فيها من التَّماس والاتصال والالتحام، بينما عبر بالسين لما في صوتها من الخفوت والضعف عن الوسيلة لما فيها من الانفصال والانقطاع من المتوسَّل إليه.

ثم يسترسل في سوق أمثلة متنوعة من الكلمات، والمعاني التي وُضعت لها.

ويذهب ابن جني في تحليله لأسرار اللغة تِلْكَ إلى أبعد من هذا، إذ يلفت النظر إلى أن الترتيب التصاعدي للأصوات لم يكن اعتباطيا في أصله، وإنما يحكمه تدرُّج تصاعدي للحروف، حيث يبدأ بالأضعف صوتا، فالقوي ثم الأقوى. كما تبدأ الأمور بطبيعتها في التدرج من الأدنى إلى الأعلى.

يقول ابن جني في هذا السياق: "نعم، ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر، والحكمة أعلى وأصنع. وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف، وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبَّر عنها بها ترتيبَها، وتقديم ما يضاهي أول الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب"[٣٨]. ثم يضرب مثالا لهذا التسلسل بقوله: "ومن ذلك قولهم شد الحبل ونحوه، فالشين بما فيها من التفشي تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل، قبل استحكام العقد، ثم يليه إحكام الشد والجذب، وتأريب (تشديد) العقد، فيعبر عنه بالدال التي هي أقوى من الشين، لا سيما وهي مدّغمة، فهو أقوى لصنعتها، وأدل على المعنى الذي أريد بها"[٣٩].

ثم يختم ابن جني بتعميم هذه العلاقة، واطِّراد هذه الظاهرة، علمها من علمها وجهلها من جهلها، وأنه إن عرضت لنا بعض الكلمات، ولم نستطع اكتشاف هذه العلاقة، فإن مردَّ ذلك إلى قصور في الفهم، أو لأن اللغة قد يدرك بعض أسرارها الأوائل – دون المتأخرين – لكونهم وصل إليهم من علمها (أي اللغة) ما لم يتح للمتأخرين، يقول ابن جني: "فإن أنت رأيت شيئا من هذا النحو، لا ينقاد لك فيما رسمناه، ولا يتابعك على ما أوردناه، فأحد

أمرين: إما أن تكون لم تنعم النظر فيه، فيقعُد بك فكرك عنه، أو لأن لأصل هذه اللغة أصولا وأوائل قد تخفى عنا، وتقصر أسبابها دوننا (كما قال سيبويه)، أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر"[٤٠].

وكان ابن جني يستعرض تصاريف الكلمة، ويقلبها على أوجه تراكيبها الستة، فيما كان يعرف بعملية "التقليب"، ويسمى اليوم بالاشتقاق الأكبر، ثم يستنتج معنى جامعا لهذه الأوجه الستة. ومن أمثلة ذلك عنده كلمة "القول" (القول – القلو – الوقل – الولق – اللوق)، فالمعنى الجامع لهذه الألفاظ عنده هو الخفة[٤١].

ويذكر ابن جني في مقدمة كتابه "الخصائص"، إنه لم يُسبق إلى الربط بين علم أصول النحو وأصول الفقه، وإن سبقته إشارات فإنها لا ترقى إلى مستوى النضج، قال: "وذلك أنا لم نر أحدا من علماء البلدين (يعني البصرة والكوفة مهد الدراسات النحوية) تعرَّض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه. فأما كتاب أصول أبي بكر (يعني ابن السراج)[٤٢] ، فلم يلمم فيه بما نحن عليه إلا حرفا أو حرفين في أوله..."[٤٣].

وقد ألف ابن جني كتاب سر "صناعة الإعراب"، استطاع أن يطور فيه مباحث علم الأصوات ومخارج الحروف، كما حاول أن يكشف فيه سر العلاقة القائمة بين الأوصاف الصوتية، والمعاني الوظيفية لهذه الحروف[٤٤].

وخلاصة القول إن ابن جني استطاع أن يصوغ نظريات لغوية ونحوية على نسق مذهب المتكلمين، ألمح إليها الخليل في إشاراته التعليلية، وقدم ابن السراج عنوانها دون الحديث عنها، وتناول الزجاجي طرفا منها، وإن كان في نزعه ضعف، ثم جاء ابن جني فأرسى قواعدها، وثبّت أركانها.

٣ - ٢ - ابن فارس:

إذا كان ابن جني قد استطاع أن يكتشف بعض أسرار اللغة، ويثبت العلاقة العضوية بين الأصوات وما وضعت له من معان، وتجاوز ذلك إلى ردم الهوة بين الدراسات اللغوية والنحوية من جهة، والدراسات النحوية والأصولية (على مذهب المتكلمين) من جهة ثانية، فإن ابن فارس كان له دوره الريادي في رد مفردات كل مادة من مواد اللغة إلى أصولها

المعنوية المشتركة. ففيم يتمثل هذا الدور؟ وما مدى أهميته في الدراسات اللغوية؟ وهل كان في طرحه اللغوي تجديد وإبداع، أم أنه كان مجرد إعادة صياغة لتفكير سلفه من اللغويين؟.

سنجيب عن هذه التساؤلات من خلال استعراض سيرة الرجل العلمية، وآثاره اللغوية، التي نستشف منها بعض آرائه، التي شملت آرء في الأصول اللغوية (المعاجم وأصول الكلمات) والنحوية والصرفية وفقه اللغة وغير ذلك...

ابن فارس: هو أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ). نوه أصحاب كتب التراجم بمكانة ابن فارس العلمية، وإمامته في علوم اللغة، قال ابن خلكان: "كان إماما في علوم شتى، خصوصا اللغة، فإنه أتقنها"[٤٥]. ووصفه ياقوت الحموي بقوله: "من أئمة اللغة في وقته... محتجا به في جميع الجهات، غير منازع"[٤٦].

أما مؤلفاته فقد بلغت (٦٦ مؤلفا)، شملت مختلف فنون اللغة العربية: في النحو والصرف والأدب وغريب اللغة والمعاجم وفقه اللغة والسيرة النبوية والشمائل المحمدية والألغاز اللغوية والبلاغة والرد عن بعض النحاة أوالرد عليهم، وتفسير القرآن وأصول الحديث، والمعاش والكسب.... إلخ[٤٧].

وسنتعرف على مذهب ابن فارس اللغوي من خلال ثلاثة من كتبه، نرى أنها تعكس أهم معالم رؤيته اللغوية.

وقد اخترنا هذه الكتب لكون كل واحد منها يمثل رؤيته في زاوية لغوية معينة، والكتب هي:

* المقاييس في أصول المعاني الوضعية للكلمات العربية.
* المجمل في المعاني المعجمية للكلام العربي.
* فقه اللغة: في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها.

فأين مكان هذه الكتب من المكتبة اللغوية في عصر ابن فارس؟ وهل أضافت بحق لبنة، وارتقت درجة في سُلَّم الدراسات اللغوية، أم أنها كانت مجرد تكرار، وإعادة صياغة للدرس اللغوي السابق؟

هذا ما سنحاول أن نتبينه من خلال تسليط الأضواء على هذه المؤلفات.

١ - كتاب مقاييس اللغة العربية:

وهو محاولة جادة من ابن فارس لرد مفردات اللغة إلى أصولها المعنوية المشتركة.

وهو يعني بالمقاييس ما يسميه بعض اللغويين "الاشتقاق الكبير"، الذي يرجع مفردات كل مادة إلى معنى، أو معان تشترك فيها هذه المفردات[٤٨]. فقد عمل ابن فارس استقراء لمواد اللغة العربية، حاول من خلاله أن يعمم قاعدة الاشتقاق على كلام العرب. كما انتهج لنفسه طريقة خاصة- لم يهتد إليها سلفه من اللغويين - في ترتيب كلمات المعجم، حيث رتبها ترتيبا ألفبائيا، لكن على نسق خاص، بادئا بالهمزة، فالمضاعف من الثلاثي، ثم غير المضعف من غير الثلاثي، خاتما كل مادة من الثلاثي بباب يذكر فيه ما زاد على الثلاثي[٤٩].

وسنستعرض نماذج متعددة من مواد الكتاب، مراعين في هذا الاستعراض عناوين وأبواباً ومواد، نرى أنها تعطي تصورا ولو جزئيا لنظرة ابن فارس للأصول المشتركة لمواد اللغة العربية.

بدأ ابن فارس كتابه بقوله: كتاب الهمزة (باب الهمزة في الذي يقال له المضاعف)، ثم شرع يقول: أبَّ: اعلم أن للهمزة والباء في المضاعف أصلين، أحدهما: المرعى، والآخر القصد والتهيؤ. فأما الأول فقول الله عز وجل ﴿**وفاكهةً وأبًّا**﴾ (الآية ٣١ من سورة عبس).. وهكذا أردف يستشهد بالقرآن والحديث النبوي، وأقوال العرب وأشعارهم.

وفي مادة (برّ) يقول: الباء والراء في المضاعف أربعة أصول: الصدق، وحكاية صوت وخلاف البحر، ونبت، المجمل ١/١٧٧.

وفي مادة (أنس) يقول: الهمزة والنون والسين أصل واحد، وهو ظهور الشيء. ١/١٤٥.

وفي مادة (أم) يقول: وأما الهمزة والميم فأصل واحد، يتفرع منه أربعة أبواب، وهي: الأصل والرجع والجماعة والدين، وهذه الأربعة متقاربة، وبعد ذلك أصول ثلاثة، وهي: القامة والحين والقصد. ١/٢١.

وفي مادة (اسم) يقول: الهمزة والسين والميم كلمة واحدة. ١/١٠٦.

وفي مادة (أشف) يقول: الهمزة والشين والفاء كلمة ليست بالأصلية، ولذلك لم نذكرها. والذي سمع فيه الإشفى. ١/١٠٧.

وفي مادة (أصل) يقول: الهمزة والصاد واللام ثلاثة أصول متباعد بعضها من بعض، أحدها أساس الشيء، والثاني الحية، والثالث ما كان من النهار بعد العشي. ١/١٠٩.

باب جاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف أوله جيم. ١/٥٠٥.

وذلك على أضرب، فمنه ما نحت من كلمتين صحيحتي المعنى، مطردتي القياس، ومنه ما أصله كلمة واحدة، وقد ألحق بالرباعي والخماسي بزيادة تدخله، ومنه ما يوضع كذا وضعا. ثم يضرب الأمثال لهذه الأضرب، فمن المنحوت قولهم للباقي من أصل السَّعفة إذا قطعت (جُذمور) ... وذلك من كلمتين إحداهما الجذم وهو الأصل، والأخرى الجذر وهو الأصل. ١/٥٠٥-٥٠٦. وضرب للنوع الثاني مثالا، نحو: جَلْعَدٌ، فالعين زائدة وهو من الجَلَد. وجَحْدلَ: الدال زائدة، وهو من السِّقاء الجَحْل وهو العظيم. ١/٥٠٩. ثم ختم كلامه على هذين النوعين بقوله إنهما قياسيان، قال ابن فارس: "فهذا ما جاء على المقاييس الصحيحة". ١/٥١٢.

ثم شرع في الكلام على النوع الثالث بقوله: "ومما وضع وضعا ولم أعرف له اشتقاقا"، وبدأ في ضرب الأمثلة عليه وشرح هذه الأمثلة. ١/٥١٢-٥١٣.

وربما نوع العبارة فقال: (شمط)، الشين والميم والطاء مقياس صحيح يدل على الخلطة، إشارة إلى أن الكلمة لها أصول صحيحة وقياسية. ٣/٢١٤.

وربما نوع العبارة فقال: "أُصَيْلٌ"، ولعله يعني بذلك أن اللغة قبيحة، أو ضعيفة، أو رديئة، أو قليلة، وأغلب الظن أنه يقصد باستعماله (أصيل)، قلة اللغة لكونه ربما أردفها بقوله "صحيح" أي أُصَيْلٌ صحيح، مثال ذلك: "شأز": الشين والهمزة والزاء، أُصَيْلٌ يدل على قلق وتعادٍ في المكان، من ذلك المكان الشأز، وهو الخشن المتعادي. ٣/٢٣٧. وكذلك قوله "شبث"، الشين والباء والثاء أُصَيْل يدل على تعلق الشيء بالشيء، من ذلك قولهم تشبثتُ أي تعلّقتُ. ٣/٢٣٩.

وربما حكم على الكلمة بأنها لا تحمل سمات العربية وطلاوتها، من ذلك قوله: "طبل"،

الطاء والباء واللام ثلاث كلمات ليست لها طلاوة كلام العرب، وما أدري كيف هي؟ من ذلك الطبل الذي يضرب، ويقولون إن الطبل الخلق، والثالثة الطوبالة، ويقال هي النعجة. ٣/٤٤٠-٤٤١.

وربما جاء بالمادة فوصفها بقوله: "كأنها صحيحة"، من ذلك قوله "ظرف"، الظاء والراء والفاء، كلمة كأنها صحيحة، ثم شرع يسرد الأمثلة، ثم عقب في نهاية المادة بقوله: وما أحسب شيئا من ذلك من كلام العرب. ٣/ ٤٧٤-٤٧٥.

وربما جاء بالعنوان فصرح أنه لم يجد فيه شيئا من كلام العرب، من ذلك قوله: "باب جاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف أوله ظاء"، ثم جاء تحت العنوان ما صورته: "لم نجد إلى وقتنا شيئا".

وربما حكم أن المادة ليس فيها شيء من كلام العرب، إلا كلمة مُعَرَّبة، من ذلك قوله: "فسَّ"، الفاء والسين، ليس فيه شيء إلا كلمة معربة، يقولون الفِسْفِسَة: الرطبة. ٤/٤٤٠.

تعليقات ابن فارس على أقوال الخليل بن أحمد:

لقد أكثر ابن فارس من العزو للخليل بن أحمد في كتابه "العين"، حتى لا يكاد يخلو باب من العزو له، وكان كثيرا ما يعلق على كلامه بقوله: "وهو صحيح"، أو "ما قاله الخليل صحيح".

ونادرا ما يتحفظ على كلامه، وإن وقع منه ما يوهم ذلك، أوَّل الكلام بقوله: "وزعموا أن الخليل قال: ثم عقّب بقوله وهو شاذ". وربما أوّل الشاهد المعزو للخليل بقوله: "إنه مصنوع" أو غيرها من الاعتبارات أو التأويلات التي ينصب فيها التحفظ على الرواية عن الخليل، لا على كلام الخليل نفسه. وقد حاولتُ أن أجد له تحفظا صريحا عليه، فلم أظفر به.

نقده لكلام شيخه ابن دريد:

قال ابن فارس في مادة "شغن"، الشين والغين والنون ليس بشيء، وليس لما ذكره ابن دريد أصلٌ ولا معنى، أن الشَّغْنَة الكارة (شيء يحمله الرجل على ظهره). راجع ٣/١٩٥. ومن ذلك أيضا قوله: "شبص"، الشين والصاد والباء ليس بشيء، وروى ابن دريد، الشبص: الخشونة، فعلق على قول ابن دريد بقوله: "ليس هو بشيء". ٣/٢٤١.

وربما شنع العبارة على شيخه ابن دريد فوصف شرحه بعبارة لا تليق بمقام المشيخة، وإن كانت الأمانة العلمية تقتضي التصويب دون خدش في العرض. من ذلك قوله: "عدك"، العين والدال والكاف ليس بشيء، إلا كلمة من هنوات ابن دريد، قال: "العدك ضرب الصوف بالمطرقة"[٥٠].

وخلاصة القول إن ابن فارس حاول في كتابه "المقاييس" أن يعمم ظاهرة "الاشتقاق" على مفردات اللغة العربية، متخذا من كلام من سبقه، منطلقا لهذا الأمر. فقد سبقت ابنَ فارس محاولاتٌ عديدة، تمثلت في إشارات عابرة أحيانا، وفي فصول بل وكتب تارات أخرى، بدأت بالأصمعي وقطرب والأخفش، وانتهت بابن جني وابن دريد، الذي ألف كتابه "الاشتقاق". بيد أن كل هذه المحاولات لم ترق إلى مستوى طموح ابن فارس، الذي حاول أن يعمم القاعدة ويمد القياس ليشمل معظم كلام العرب. ولكنه اعترف بعدم اطّراد القياس في بعض المواد كالكلمات الدالة على الأصوات، وأسماء البلدان، لكونها ليست من باب الاشتقاق[٥١].

٢ - مجمل اللغة:

يأتي كتاب "مجمل اللغة" في الدرجة الثانية بعد كتاب "المقاييس"، وتتجلى أهميته في كون المؤلف نهج فيه نهجا خاصا من حيث الترتيب – وإن لم يحظ نهجه باهتمام ولا بأتباع من طرف اللغويين من بعده – ومن حيث المحتوى أو المضمون، إذ استطاع أن يضمن كتابه خلاصة معجمية لمن سبقه من اللغويين، ملتزما في عرضه صحة النقل، واتصال السند من جهة، ثم نقد آراء من سبقوه نقدا علميا، وتصحيح ما رآه صحيحا، ورفض وتفنيد ما يراه دخيلا مغلوطا.

وسنتبين معالم منهجيته من خلال تسليط الضوء على بعض جوانب كتاب "المجمل"، كمصادره في الكتاب، وترتيبه لمادة المعجم، واستعراضه لآراء اللغويين، ونقده لهذه الآراء، وعنايته بالظواهر اللغوية والصرفية، وإشارته إلى المعرب...

ألف ابن فارس كتابه سعيا إلى تسهيل تناول مواد المعجم، بعد أن كثرت أبوابها وتشعبت سبلها، فغدا من يروم البحث عن كلمة لا يدري من أين يلتمسها، أمن قِبَل مخارج أصواتها، كما هو الشأن في معجم "العين" للخليل، أم يتخذ أواخر المفردات أبوابا،

وأوائلها فصولا على نهج الجوهري وصحاحه، وابن منظور في لسان العرب، أم يرتب الكلمات على حروف الألفباء فعْلَ الزمخشري في "أساس البلاغة". وقد ابتكر ابن فارس طريقة خاصة ألفبائية لكن على نمط خاص، حيث بدأ بكتاب الهمزة (باب الألف "الهمزة" وما بعدها في الذي يقال له المضاعف)، يليه الباء المضعّف (أبّ) ثم يليه (أتّ وأثّ وأحّ...)، وبعد أن ينهي المضعف يرجع إلى (أ ء – آء)، ثم باب الهمزة والباء وما يثلثهما، على نحو: (أبت – أبث – أبد ....)، فهو يلتزم أن يأتي بعد كل حرف بالذي يليه في الترتيب الألفبائي، ثم الذي يلي ذلك حتى يأتي على نهاية الحروف، ثم يرجع إلى الهمزة وما يليها. ويبدأ في كل باب بالمضاعف، ثم المطابق (وهو المكرر مثل: جرجر – وسوس)، ثم غير المضاعف. وهكذا يبدأ كل مادة بباب الثلاثي، ثم يختمها بباب ما زاد على ثلاثة أحرف.

وقد أوضح في مقدمة كتابه أن الغرض من تأليف الكتاب، تسهيل البحث عن الكلمة، والاختصار في الكلام "وسألتني جمع كتاب فيه (أي الكلام) يذلل لك صعبه، ويسهل عليك وعره، فأنشأت كتابي هذا بمختصر من الكلام، قريب يقل لفظه، وتكثر فوائده، ويبلغ بك طرفا مما أنت ملتمسه"[٥٢].

أما مصادره التي استقى منها مادته، فيمكن تقسيمها إلى قسمين أساسيين هما:

أ – الرواية الشفهية: ويشترط فيها أن تكون متصلة السند، وهو لذا حريص على ذكر سنده الذي أخذ عنه، إما تفصيلا، كما فعل في مقدمة كتابه (مجمل اللغة)، وإما إجمالا، كقوله: "وحدثنا عن الخليل بإسناد الكتاب، قال: ..."[٥٣].

ب – الكتب التي نقل عنها: ويمكن تلخيص الكتب التي أكثر العزو إليها في خمسة:

– العين: للخليل بن أحمد، ونقل عنه في المجمل (٢٤٠) مرة.

– كتابي أبي عبيد: الغريب المصنف في اللغة، وغريب الحديث، وقد نقل عن الأول كثيرا من مواد اللغة، واعتمد على الثاني فيما استشهد به من أحاديث الرسول ﷺ، وأقوال الصحابة والتابعين.

– إصلاح المنطق لابن السكيت أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (ت ٢٤٤هـ): وقد نقل عنه بعض النقول وإن لم يصرح باسمه.

- جمهرة اللغة لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي (ت ٣٢١هـ): وقد نقل عنه (٢٣٠) مرة.

ونقل عن بعض الكتب الأخرى مسائل متفرقة في ثنايا الكتاب، يطول ذكرها[٥٤].

أما طريقة ابن فارس في تناول مواد اللغة وشرح ألفاظ معجمه، فلم تخرج - في عمومها - عن طريقة الأوائل، إذ يبدأ بشرح الكلمة، مستشهدا على صحتها بكلام العرب: من قرآن كريم، وحديث شريف، وأمثال وأقوال العرب، ممن يستشهد بكلامهم، فإن كان عنده عليها تحفظ، أو تصحيح، صرح به وبين وجهه، كقوله: "قال ابن السكيت: ضفيفة من بقل، وقال غيره ضغيغة، والأول عندي أصح..."[٥٥]. وربما بدأ حديثه عن المادة بتعليقات تنم عن معرفة راسخة بعلم الأصوات، كقوله: "هذا كتاب الحاء من مجمل اللغة، وهو حرف من حروف الحلق، يأتلف في المضاعف والمطابق مع الحروف كلها، إلا مع التي تقاربه، فلا يكون بعد الحاء حاء، ولاخاء ولا عين ولا غين ولا هاء"[٥٦].

وأهم ما يتميز به هذا الكتاب - فضلا عن الأمانة في النقل، والحرص على عزو الأقوال بالسند إلى ذويها، هو أن صاحبه كان يقف - ولو قليلا - عند الظواهر اللغوية والصرفية، كالإبدال والأضداد وغيرها[٥٧].

وكانت أكثر الظواهر التي استرعت اهتمامه هي الألفاظ المعربة، فلا يكاد يذكر الكلمة التي لها جذور أجنبية حتى يبين أصلها، كقوله: "الطراز فارسي معرّب، ... والقَبَجُ معروف وهو معرب، والخِوان فيما يقال اسم أعجمي"[٥٨].

٣ - كتاب الصاحبي في فقه اللغة:

تتلخص أهمية هذا الكتاب في أنه أول مؤلَّف - حسبما تسعف به المصادر - وضع أسس علم فقه اللغة العربية، وأرسى قواعده، وثبّت مصطلحاته.

فقد استهل كتابه بالحديث عن نشأة اللغة، وأجمل الحديث عن هذه النقطة في ثلاث نقاط، متفرعة عن مسلمة انطلق منها، وهي أن "اللغة توقيف"[٥٩].

وقد عقد محاورة في مسألة توقيف اللغة، يمكن إجمال إشكالاتها فيما يلي:

اللغة توقيف: الدليل الشرعي: قوله تعالى: ﴿**وعلّم آدم الأسماءَ كلَّها ثم عَرَضَهم على الملئكة**﴾ (الآية ٣١ من سورة البقرة).

الإشكالات: ١ – لو كان ذلك كما تذهب إليه، لقال: "ثم عرضهن أو عرضها"، لأن مفسر الضمير هو الأسماء، وهي مما لا يعقل. الجواب: المقصود – والله أعلم – أنه من باب التغليب، أي تغليب ما يعقل على ما لا يعقل، وهي سنة من سنن العرب في كلامهم.

الإشكال ٢ : قولنا سيف وحسام وعضب، هي من باب التوقيف أو الاصطلاح؟

الجواب: الدليل على صحة ما نذهب إليه، إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه، أو يتفقون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا، لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم أولى منا في الاحتجاج، لو اصطلحنا على لغة القوم ولا فرق.

الإشكال ٣: هل اللغة جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد؟

الجواب: وقّف الله عز وجل آدم عليه السلام مما احتاج إلى علمه في زمانه، ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء نبيا نبيا ما شاء أن يعلمه، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد ﷺ، فآتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله، ثم قرَّ الأمر قراره، فلا نعلم لغة من بعده حدثت.

ثم ختم هذه المحاورة – التي كان طرفاها من وإلى ابن فارس – بقوله: "لم يبلغنا أن قوما من العرب في زمان ... أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح كان قبلهم"[٦٠].

ثم يسترسل ابن فارس في عرض أبواب كتابه، فتحدث عن أوليات الأشياء في اللغة: أول من كتب بالخط العربي، وأول معرفة أسماء الحروف، وأول معرفة الإعراب وحركاته، وأول معرفة العروض وبحوره ... إلخ..

فيخلص إلى القول إن كل هذه العلوم توقيفية، ويستدل على ذلك بأدلة نقلية وعقلية، معززا أقواله بالحجج والبراهين الساطعة القاطعة، التي تجعلنا نُكبر في هذا الرجل الذي عاش في القرن الرابع الهجري خوضه في عويصات مسائل فقه اللغة، كالقول بعدم الإحاطة بلغة العرب[٦١]، والقول في مأخذ اللغة[٦٢]، والقول في الاشتقاق[٦٣]، والقول في أن لغة العرب لم تصل إلينا بكليتها[٦٤]، والقول في ظاهرة الإعراب عند العرب[٦٥]، والقول في ضروب الكلام التي يجوز ائتلافها[٦٦]، والتي لا يجوز ائتلافها، والقول في المجاز النقلي[٦٧]، والقول في النحت[٦٨]... إلى غير ذلك من الأبواب.

وقد تناول ابن فارس في كتابه "الصاحبي" جُلّ مواضيع فقه اللغة بأسلوب سلس يطبعه الاختصار والدقة وبلاغ الحُجّة.

ومع سبقه في هذا المجال، فقد دفعته أمانته وتحريه الصدق إلى القول – في مقدمة كتابه – إنه لم يكن له في هذا الكتاب إلا جَمْعُ المادة، وإيضاح المشكل: "والذي جمعنا في مؤلَّفنا هذا مفرَّق في أصناف (أي مؤلفات) العلماء المتقدمين رضي الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء. وإنما لنا فيه اختصارُ مبسوط، أو بسط مختصر، أو شرح مشكل، أو جمع متفرق"[٦٩].

IV. النحو في الأندلس: ابن مالك ومدرسته النحوية

رحلة النحو إلى الأندلس:

ظل النحو في الأندلس يحبو وئيدا من بداية نشأته التي كانت على يد جودي بن عثمان (ت١٩٨هـ)، الذي رحل إلى المشرق، وتتلمذ على يد الكسائي والفراء، ثم رجع إلى الأندلس حاملا معه النحو الكوفي. فألّف ودرّس، ونشر المذهب الكوفي بالأندلس.

أما المذهب النحوي البصري فقد دخل الأندلس على يد أبي علي القالي (ت ٣٥٦هـ)، الذي قدم من بغداد، ومعه بعض ذخائر اللغة والأدب والنحو، وكان أهم كتاب جاء به هو كتاب سيبويه، الذي أخذه عن ابن درستويه عن المبرد.

ثم لم يزل النحو البصري يدرّس بالمدارس الأندلسية، حتى انتهى إلى محمد بن مالك الجياني الذي تقلد رئاسته[٧٠].

فمن أين استقى ابن مالك مذهبه؟ وما الخصائص المميزة له؟ ومَن هم أهم رجال مدرسته؟

٤ - ١ - ابن مالك الجياني:

ولد جمال الدين محمد بن مالك الطائي في مستهل القرن السابع الهجري بجيان. وأخذ النحو عن ثلة من أجل علماء بلده، منهم: ثابت بن خيار الكلاعي الغرناطي (ت ٦٢٨هـ)، وجلس في حلقة الشلوبين[٧١] في مدة لا تتجاوز ثلاثة عشر يوما. وحين رحل إلى الشام سمع من أبي صادق بن صباح، ومن مكرم بن محمد بن جمرة القرشي، ولازم ابن يعيش الحلبي، صاحب كتاب "المفصل" فترة طويلة[٧٢].

ولم يكتف ابن مالك بالأخذ عن الشيوخ، ولكنه نهل من معارف عصره، واستوعب أمهات كتب النحو القديمة، ككتاب سيبويه وشروحه، ومؤلفات المبرد، وأصول ابن السراج، وجمل الزجاجي، ونتائج الفكر للسهيلي، ومقدمة الجزولي، وألفية ابن معطي، فضلا عن طول باعه في علوم اللغة الأخرى، وإمامته في علوم المقرإ، ومشاركته في علوم الحديث. ورحلاته في طلب العلم التي قادته إلى مصر ودمشق، التي أقام بها حتى توفي سنة ٦٧٢هـ.

فابن مالك إذًا قد جمع بين الأخذ عن علماء الأندلس وعلماء المشرق، فضلا عن استيعابه لأمهات الكتب القديمة في مختلف علوم اللغة، وذلك ما بوّأه رئاسة علوم النحو في عصره.

مؤلفات ابن مالك:شملت مؤلفات ابن مالك مختلف علوم اللغة العربية: من نحو وصرف، ومؤلفات في ضبط معاني الألفاظ، والأصوات، وعلم العروض، والقرءات ...إلخ[٧٣].

وأشهر هذه المؤلفات: تسهيل الفوائد، والكافية الشافية، والخلاصة.

وتمثل هذه المؤلفات خلاصة مذهب ابن مالك النحوي، وآرائه واجتهاداته. ومنذ ظهرت هذه المؤلفات، تسارع العلماء إلى دراستها، والاهتمام بها. فتناولوها بالتعليقات والشروح والتقييدات، ما بين مقتصر على الضروري من النحو، الذي لا يسع الطالب جهله، وبين غائص في عويصات المسائل، وشوارد المشكلات. غير أن اهتمام العلماء انصب على كتابي الخلاصة والتسهيل. فتبارى العلماء في شرحهما، وحظيا باهتمام قل نظيره، إذ رأى الطلاب في الخلاصة بغيتهم وبُلْغتهم، ورأى العلماء في التسهيل المختصر الجامع، دون إطالة أو إخلال.

ومن أهم شروح الخلاصة[٧٤]: شرح أبي حيان المسمى "منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك"، وشرح ابن الناظم[٧٥]، وشرح قاضي القضاة بهاء الدين بن عقيل المسمى "شرح ابن عقيل"، وشرح جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري، المسمى "التوضيح على ألفية ابن مالك في النحو". ثم توالت الشروح بعد ذلك في مختلف الأقطار العربية التي وصلت إليها الخلاصة.

أما كتاب التسهيل، والذي رأى فيه الكثيرون أنه كان أحسن كتاب وأجمعه بعد كتاب سيبويه، فلم تكد تتلقفه أيدي العلماء حتى تسابقوا إليه درسا وتدريسا، وشرحا وتلخيصا، يقول أبو حيان: "أحسن موضوع في علم النحو وأجله كتاب أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، وأحسن ما وضعه المتأخرون من المختصرات وأجمعه للأحكام كتاب تسهيل الفوائد"[٧٦].

ولم يكتف أبو حيان بالثناء على التسهيل، ولكنه شرحه ثلاثة شروح، هي: التكميل في شرح التسهيل، والتخييل الملخص من شرح التسهيل، والتذييل والتكميل في شرح التسهيل. ثم تتابع العلماء بعد أبي حيان في شرح التسهيل، نذكر منهم: شرح محمد بن أحمد بن قدامة الحنبلي (ت ٧٤٤هـ)، وشرح بدر الدين الحسين بن قاسم المرادي (ت٧٤٩هـ)، وشرح جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، وشرح بهاء الدين عبد الرحمن بن عقيل (ت ٧٦٩هـ)، وشرح محيي الدين الحلبي المعروف بناظر الجيش (ت ٧٧٨هـ)، وشرح بدر الدين محمد بن أبي بكر بن الدماميني (٨٧٣هـ)، وشرح محمد المرابط الدلائي (١٠٨٩هـ)[٧٧].

٤ - ٢ - خصائص مدرسة ابن مالك:

يمكن إجمال خصائص مدرسته في النقاط التالية:

١ – توسيع دائرة السماع: فقد كان النحاة قبل ابن مالك يعتمدون في شواهدهم على مصدرين هما: القرآن الكريم، وأشعار العرب، وأقوالهم.

وحين جاء ابن مالك أضاف مصدرا ثالثا للشواهد، تمثل في الحديث النبوي الشريف، فقد تذرّع النحاة في عدم الاستشهاد بالحديث بأنه إنما نقله الرواة بالمعنى. وقد برهن ابن مالك على أن جميع الصيغ الواردة في الأحاديث النبوية الشريفة – التي تم الاستشهاد بها – لها شواهد من أشعار العرب التي يجمع النحاة على الاستشهاد بها.

وفي الرجوع إلى مؤلفات ابن مالك نرى اعتماده على الأحاديث النبوية كمصدر مهم من مصادر الشواهد النحوية.

كما ألف ابن مالك كتاب "شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح"[٧٨]، وضح فيه حجية لغة الأحاديث وصحتها، بما لا يترك مجالا للشك في هذه اللغة.

٢ – التعليل: لم يكن ابن مالك أول من تحدث عن العلل النحوية، ولكنه قرَّب هذه العلل وسهلها، وردّها إلى السليقة العربية، والبعد عن التكلف، ومجاراة الأساليب العربية الواضحة، بعيدا عن التعقيد والالتواء واللبس. ومن أمثلة ذلك قوله في باب النعت، من الخلاصة:

وما من المنعوت والنعت عُقِلْ يجوز حذفه وفي النعت يقِلْ

وفي باب الابتداء:

وحذف ما يعلم جائز كما تقول زيد بعد مَن عندكما؟

وفي باب التعجب:

وحذفَ ما منه تعجبت استبِح إن كان عند الحذف معناه يضحْ

وفي إسقاط همزة التسوية:

وربما أُسقطت الهمزة إنْ كان خَفَا المعنى بحذفها أُمِنْ

٣ – القياس: وقد اهتم ابن مالك بالقياس، وحاول مدَّه على أغلب القواعد النحوية، متى وجد سبيلا إلى ذلك. كما نلمس تعميمه للقياس في أغلب مؤلفاته، لاسيما الخلاصة، لذلك يقول في عدم جواز الابتداء بالنكرة ما لم تُفِد، في باب الابتداء:

ورغبة في الخير خير وعملْ بِرٌّ يزين وليقس ما لم يقل

وفي باب الابتداء أيضا، يقول:

وقس وكا ستفهام النفي وقد يجوز نحو فائز أولو الرشد

وفي باب المصادر:

وغير ذي ثلاثة مقيسُ مصدره كقدَّس التقديسُ

وفي باب الظرف:

وشرطُ كونِ ذا مقيسا أن يقعْ ظرفا لما في أصله عنه امتنعْ

ولكن ابن مالك لم يطلق القياس، بل قيده بالشيوع والكثرة. كما تعرض كثيرا للشذوذ،

مخافة أن يحمل كلامه في القياس على وجه الإطلاق. وحدّد ضوابط القياس، وبين أن الضرورة خاصة بالشعر، قال:

وفي اختيار لا يجيء المنفصل إذا تأتى أن يجيء المتصل

وقد اهتم بمسألة الشائع والنادر والشاذ، حرصا على تبيين مراتب الكلام من حيث الصحة والضعف والنُّدرة، من ذلك:

وشاع نحو خاف ربَّه عمر وشذ نحو زان نورُه الشجر

وقال في الإخبار عن أفعال المقاربة:

ككان كاد وعسى لكن ندرْ غيرُ مضارع لهذين خبرْ

وقال في الحال:

كتلك ليت وكأنَّ وندرْ نحوُ سعيدٌ مستقرا في هجرْ

وقال في شذوذ إيلاءِ يديْ لِلَبَّيْ، في باب النداء:

..... **وشذَّ إيلاءُ يدَيْ لِلَبَّيْ**

وقال في فشو حذف اسم لات وندرة حذف خبرها:

وما للات في سوى حين عمل وحذف ذي الرفع فشا والعكسُ قل

وقال في الحث على الوقوف عند حد القياس والسماع في باب النسب:

وغير ما أسلفته مقررا على الذي ينقل منه اقتُصِرا

٤ – اجتهاداته وآراؤه الخاصة:

قال في عطف النسق:

وعود خافض لدى عطف على ضمير خفض لازما قد جعلا

وليس عندي لازما إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح مثبتا

وقال في الضمائر:

كذاك خلتنيه واتصالا أختار غيري اختار الانفصالا

وقال في باب النائب عن الفاعل، مبينا أنه لا يتعين نيابة المفعول الأول في باب ظن وأرى، إذا أُمِنَ اللبسُ:

في باب ظن وأرى المنع ظهر ولا أرى منعا إذا القصد ظهر

٤ - ٣ - أهم رجال مدرسة ابن مالك:

لقد أسس ابن مالك مدرسة نحوية لها خصائصها ومميزاتها الخاصة، وكل من جاء بعد ابن مالك، إنما كان يغرف من بحره، ويأكل من فضله. وقد تخلى الناس بعده عن كتاب سيبويه، مستعيضين منه كتب ابن مالك، لما تتسم به من وضوح، وتتصف به من شمول وحسن ترتيب وتبويب، لذا كثر أتباعه وانتشروا في مختلف الأقطار العربية، حاملين معهم حيثما حلوا هذا المذهب. فنرى أئمة هذه المدرسة في مصر والمغرب وموريتانيا، وحتى في المشرق العربي.

فلم يعد حصر أتباع هذه المدرسة إذًا أمرا هينا، ولكن سنكتفي بذكر ثلة قليلة، نرى أنهم كانوا يمثلون أهم اتجاهات هذا المذهب، أشهرهم:

١ – أثير الدين أبو حيان الغرناطي (ت ٧٤٥هـ)[٧٩]. له عشرة كتب في القراءات، وتفسير البحر المحيط، وكتاب التذييل، وارتشاف الضرب، وشرح على ألفية ابن مالك، سماه "منهج السالك على ألفية ابن مالك"، وثلاثة شروح للتسهيل، هي: التخييل الملخص من التسهيل، والتكميل لكتاب التسهيل، والتذييل والتكميل في شرح التسهيل، وقصيدة طويلة في تاريخ النحو منذ نشأته، وحتى أيام أبي حيان. وله بعض الاعتراضات على ابن مالك في بعض المسائل النحوية[٨٠].

٢ – جمال الدين بن الحاجب (ت ٦٤٦هـ)[٨١]، الفقيه الأصولي. له مؤلفات في الفقه والأصول والعروض والأدب. من أهم كتبه في النحو والصرف: شرح كافية ابن الحاجب لابن الحاجب الكافية والشافية، اللذان شرحهما رضي الدين الإستراباذي (٦٨٦هـ).

٣ – شهاب الدين القرافي (ت ٦٨٤هـ)[٨٢]، النحوي الفقيه. له في الفقه: أنوار البروق في أنواء الفروق، والذخيرة والتنقيح، وفي النحو: قواعد اللغة العربية، والاستغناء في الاستثناء.

٤ – ابن هشام الأنصاري، جمال الدين عبد الله بن يوسف (ت ٧٦١هـ)[٨٣]. من أجل رجال

مدرسة ابن مالك، وناشري مذهبه. له مؤلفات أهمها: قطر الندى وبل الصدى، وشذور الذهب في معرفة كلام العرب، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب. وقد رد على اعتراضات أبي حيان على ابن مالك، ردا بلغ أحيانا حدّ التحامل على أبي حيان، رغم أنه من شيوخه[٨٤].

٥ – بهاء الدين عبد الله بن عقيل، الفقيه القاضي اللغوي النحوي (ت ٧٦٩هـ)[٨٥]. لازم شيخه أبا حيان، حتى تَوَّجَهُ بكلمته المأثورة عنه "ما تحت أديم السماء أنحى من ابن عقيل". جمع بين اللغة والتفسير والفقه والقراءات. له مؤلفات أشهرها: شرح الخلاصة، ويعرف بـ"شرح ابن عقيل"، وشرح التسهيل المسمى "المساعد على تسهيل الفوائد".

٦ – الحسن بدر الدين بن قاسم بن عبد الله بن عمر المرادي المصري (٨٤٩هـ)[٨٦]، المعروف بابن أم قاسم، النحوي الأديب، تخرج علي يد أبي حيان. ألف في إعراب القرآن وتفسيره، وشرح نظم "حرز الأماني" المعروف بالشاطبية في القراءات. أما مؤلفاته النحوية، فمنها: شرح الجزولية، وكافية ابن الحاجب في النحو، وشرح تسهيل ابن مالك. وشرح الألفية.

٧ – جمال الدين الأسنوي، الفقيه الأصولي النحوي[٨٧]. قام بمحاولة رائدة لتنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية، أي تقديم القواعد الفقهية في سياقات وألغاز نحوية. وهو الكوكب الدريّ فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية (مطبوع)

٨ – محمد بن أبي بكر الدماميني المصري النحوي الأديب (ت ٨٢٧هـ)، المعروف بابن الدماميني. من مؤلفاته: تحفة الغريب بشرح مغني اللبيب، وجواهر البحور في العروض، وشرح التسهيل المسمى "تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد".

٩ – جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، الإمام الحافظ والمؤرخ الأديب. أوجز الدكتور محمد المختار ولد ابّاه ترجمته في ثلاثة أرقام: ٧ علوم، ١٥٠ شيخا، ٧٢٥ مصَنَّفا. له عشرات المؤلفات في اللغة والنحو أهمها:

* همع الهوامع شرح جمع الجوامع
* ألفية في النحو أودعها مذهبه النحوي
* الأشباه والنظائر: وهو أهم كتبه النحوية، وقد لخص فيه مجمل آرائه النحوية واللغوية.

وأهمية هذا الكتاب تتلخص في كونه محاولة جادة للتقريب بين مناهج الفقهاء والنحاة.

والحق أن السيوطي هو خاتمة العلماء المحققين الموسوعيين، الذين لم يصل إلى مرتبتهم مَن سواهم، مما حمل بعض أهل العلم على القول إنه كان خاتمة المجتهدين ومجدد العصر، الذي يمثل دائرة معارف عصره[٨٨]. وكان السيوطي من جملة العلماء الذين لم يكِلوا تراجمهم إلى غيرهم، فترجم لنفسه ترجمة حافلة في كتابه "حسن المحاضرة". وقد صرح في هذا الكتاب أنه بلغ منزلة في علوم عصره – ما عدا الفقه – لم يصل إليها أحد شيوخه البالغ عددهم مائة وخمسين، ومنهم أجلاء علماء العصر، وحفاظ وشيوخ الإسلام.

وإذا كنا قد استعرضنا في هذه النقطة أهم خصائص هذه المدرسة ومميزاتها، وأهم رجالها، فلنا أن نتساءل عن الدور الذي لعبته، والنهج الذي اتبعته حتى نالت به هذه المكانة، وغدا ابن مالك سيبويه عصره؟

إذا كان "نحو" سيبويه متمثلا في "الكتاب" وشروحه والكتب التي دارت حوله قد هيمن على الدراسات النحوية منذ ظهور الكتاب، وحتى ظهور ابن مالك (أي طيلة خمسة قرون)، فإنه يمكن القول إن "نحو" ابن مالك، متمثلا في كتابيه الخلاصة والتسهيل" وما دار حولهما من أعمال، قد حدَّ من المرجعية النحوية "للكتاب"، ووجه الدراسات النحوية إلى منهج ابن مالك، لما ينطوي عليه من وضوح في الرؤية، وسهولة في عرض المسائل النحوية، وجودة في الترتيب والتبويب، وتحرر من المذهبية.

ويمكن تلخيص أهم خصائص مدرسة ابن مالك فيما يلي:

١ – الاعتماد على المتون والشروح

٢ – الاجتهاد في جمع المسائل النحوية

٣ – التحرر من المسائل المذهبية

٤ – العناية بتنظيم المادة العلمية وتقديمها في شكل أنظام مدرسية تعليمية

٥ – الحرص على الوضوح في العرض والتقديم

وهذه الخصائص هي التي ضمنت لمذهب ابن مالك البقاء لفترة طويلة (ثمانية قرون)، لا يزال النحو خلالها في ثوبه "لابن مالكي"، لما يتميز به نهجه من الابتعاد عن الغموض،

وتوخي الوضوح، وحرية الرأي، وهي سِمات يفتقر إليها النحو "السيبويهي" البينُ التعقيد، الصارمُ المذهبية.

V. أسباب ضعف العربية في العصر الحاضر

بينا في عرضنا السابق أن اللغة العربية غنية بنحوها، ثرية بطاقاتها الذاتية، تحمل في طياتها عناصر القوة، وآليات البقاء. وأن الضعف الذي تعاني منه اليوم إنما هو من صنيع أبنائها. ومن الظلم والحيف أن يُحمّل وِزر ما نزل باللغة عليها. وإنما حياة كل لغة تقاس بنشاط وحيوية أهلها. فما أسباب هذا الضعف؟ وهل من سبيل إلى الرجوع باللغة إلى عصرها الذهبي؟

٥ - ١ - أسباب ضعف اللغة العربية:

كثرت الأقوال والأطروحات في شأن الأسباب التي أدت إلى ضعف اللغة وتراجعها عن موقع القيادة. غير أنه يمكن إجمال أهم التحديات التي تواجهها اللغة اليوم في:

١ – الدعوة إلى إحلال اللهجة العامية محل الفصحى: ويتذرع أصحاب هذه الدعوة بأن العامية ألصق بالوجدان، وأقرب إلى عقول العامة. وهي دعوة قضت على اللغة اللاتنية في العصور الوسطى، حين كانت لغة الأدب والعلم في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا. فما إن تفرعت عن هذه اللغة لهجات محلية، حتى تفككت، وأصابها من الضعف والوهن ما أصابها. ولم يكن ذلك إلا بتخلي أدبائها وشعرائها عنها، حين آثروا استخدام اللهجات، سعيا إلى استقطاب جمهور العامة.

٢ – التذرع بصعوبة وتعقيد قواعد اللغة العربية: وهي دعوة غير مُشْبِهَة – على حد تعبير الفقهاء – إذ من المعروف أن اللغة العربية تمتاز باطّراد قواعدها، وقياس أبنيتها نسبيا، على عكس اللغات الأوروبية، ذات الانتشار الواسع، كالإنجليزية والفرنسية والألمانية، التي لها قواعد نحوية معقدة، يكثر فيها الشذوذ في الأفعال والأسماء والجموع، كثرة فاحشة، تستدعي ممن أراد دراستها أن يحفظ هذا الكلام الهائل عن ظهر قلب. ومع كل ذلك فلم نسمع عن دعاة – بين أبناء هذه اللغات – لإلغاء القواعد النحوية، أو لإحلال لهجات أوروبية محل هذه اللغات. فلِمَ هذا الوفاء الأوروبي للغاتهم؟! وهذا الصّلَف والعقوق الفاضح في أبناء اللغة العربية؟!.

٣ – الادعاء بأن اللغة العربية الفصحى قاصرة عن استيعاب علوم العصر: وهو ادعاء تشهد ببطلانه شواهد الواقع.

٤ – انتقاد الخط العربي، ووصفه بالصعوبة والتعقيد، وعدم صلاحيته لكتابة لغة وتكنولوجيا العصر.

كان هذا مجمل المحاور الكبرى التي دارت حوله النقاشات والحملات التي استهدفت النيل من اللغة العربية.

وهي ادِّعاءات لاكتها الألسن ترديدا، وانبرت فيها الأقلام تكذيبا وتفنيدا، فكُتبت فيها مِئات المقالات، وعشرات الكتب منذ أُطلقت هذه الإشاعات.

٥ - ٢ - الردود على الشبهات التي أثيرت حول اللغة العربية:

كانت الردود على هذه الدعاوى يتجاذبها اتجاهان رئيسيان:

أحدهما: صرخات عاطفية، تحدوها النزعات العرقية، والنعرات القومية، لكن هتافاتها لا تتجاوز حناجر الداعين لها. وتقوم في معظمها على العبارات الإنشائية، والتغني بأمجاد العربية، وماضيها المشرق، دون أن تقدم حلولا، أو أطروحات تُسهم في تشخيص الواقع اللغوي.

الثاني: اتجاه حاول أصحابه – ما وسعهم ذلك – التخلي عن النزعات الطائفية، ووصف الواقع اللغوي كما هو، سعيا إلى انتشال اللغة العربية مما تواجهه من حملات شرسة تروم النيل منها، بل والقضاء عليها، بوصفها آخر قلعة من قلاع الأمة العربية والإسلامية.

والواقع أن اللغة العربية تتوالى عليها حروب بلا هوادة ولا رحمة، حتى وصفها بعض الباحثين بأنها مثخنة بالجراح "ونظرة واحدة لهذا الدم النازف من جراحات لغتنا تؤكد ذلك، نزيف في أسماء المحلات الأجنبية، نزيف في العرق المتصبب من مثقفينا وهم يجاهدون الحديث بلغتهم الأم !! نزيف في اغتراب لغتنا على ألسنة الصغار"[٨٩].

غير أن أخطر ما تواجهه لغتنا اليوم أمران:

الأول: النظرة الدونية لهذه اللغة، وتفضيل اللغات الأجنبية عليها.

الثاني: وهو مكمل للأول وفرع عنه، وهو الشعور بأهمية اللغة الأجنبية (فرنسية كانت أو إنجليزية أو غيرهما) الناتج عن الانبهار بكل ما هو أجنبي، والظن الزائف بأن التقدم لا يأتي إلا عن طريق إتقان اللغة الأجنبية.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، ولكن يتجاوزه إلى أن يصبح التخاطب بها في البيت والشارع، فضلا عن العمل أمرا مستساغا، بل مستحسنا، وهو أمارة التحضر وعلامة الرقي.

وهذا أمر ناتج عن الإحساس بالهزيمة النفسية التي يعاني منها الإنسان العربي في هذا العصر، والإعجاب المتنامي بصانع الحضارة المعاصرة[٩٠].

تلك كانت أسباب ضعف اللغة، فهل من سبيل إلى النهوض بها؟

الحق أن هناك جهودا جادة مبذولة من طرف بعض الغيورين على اللغة، لا يمكن تجاهلها، ولا التقليل من شأنها، لكنها جهود مشتتة، أي أنها جهود فردية، لا ترقى إلى مستوى التحديات، فضلا عن كون بعضها لا يراعي مستجدات العصر. فلا بد في هذا الشأن من مراعاة ما يسميه الفقهاء "فقه المراحل"، أي مراعاة كل مرحلة وما يناسبها من الجهود والإجراءات، حرصا على إعطاء كل ظرف الجرعة التي تناسبه.

لا مراء أن وضع اللغة العربية في هذه الآونة مزر، فقد أضحت اللغة اليوم سجينة القاعات الدراسية، مقيدة بأغلال الإهمال، لا يكاد يلتفت إليها القارئ أو الدارس إلا في الضرورة القصوى (الدراسية أو المهنية). في حين أن المرحلة الراهنة تقتضي منا مضاعفة الجهود لإنقاذ اللغة، إذ تؤكد الدراسات والاستطلاعات التي قام بها بعض الباحثين أن اللغة الإنجليزية تفرض هيمنتها على لغات العالم – حتى في الأوساط العربية – حيث أن ٦٥٪ من برامج الإذاعة، و٧٠ ٪ من الأفلام الناطقة، و٩٠٪ من الوثائق المخزنة على الإنترنت، و٨٥ ٪ من المكالمات الدولية، كل أولئك باللغة الإنجليزية[٩١]. ويستخدمها ما يقارب مليار وستمائة ألف شخص، أي ما يعادل ثلث سكان العالم، مع أنها اللغة الأم لـ: ٣٨٠ مليون نسمة فقط[٩٢].

فهل يتأتى لنا بعد هذه الأرقام أن نترك الساحة للغة الإنجليزية، ولا تجد اللغة العربية من نصيبنا إلا الساعات الدراسية، التي تتزاحم فيها المقررات الأخرى، فضلا عن كون الساعات المخصصة للغة لا تقدم بالشكل المرضي؟!.

الحق أنه في وضع اللغة الحالي يتحتم علينا – قبل فوات الأوان – وضع سياسات لغوية قابلة للتنفيذ.

٥ - ٣ - يمكن اقتراح خطة إصلاحية، تتلخص أساسياتها في النقاط التالية:

١ – توعية لغوية، تشمل جميع الأوساط، وتستهدف إطلاع المجتمعات العربية على الوضع المتردي للغة العربية، الذي يستدعي تضافر جهود الشعوب العربية على اختلاف مراكزهم ومواقعهم، من القمة إلى القاعدة، من أجل الدعوة إلى مؤتمر قومي، يرد للغة العربية اعتبارها، ويبوئها مكانتها، ويعرف لها حقها، ويوفي لها ذمامها.

ويتم من خلال هذه التوعية إعداد دراسات جادة، تتناول اللغة والمخاطر التي تواجهها، وعلاقتها بالعلوم والتكنولوجيا والفنون والتربية... إلخ.

٢ – العمل على إيجاد فلسفة لغوية عربية واقعية، تضع اللغة العربية في مكانها الذي تستحقه في منظومة الثقافة والمنظومة المجتمعية.

٣ – مراجعة سياساتنا التعليمية مراجعة شاملة، إنْ على المستوى العمودي (من الروضة وانتهاء بالجامعة)، أو على مستوى العمق (مراجعة البرامج والمقررات والكتاب المدرسي، والساعات المخصصة للغة العربية، وضوارب المواد والامتحانات.....).

٤ – غرس العِزَّة الإسلامية والقومية في نفوس العرب، فالمشكلة الأساسية للعرب اليوم تكمن في الشرخ الواضح، والانفصام الجلي في شخصيتهم، وتخليهم عن ثوابتهم، التي هي رمز عزتهم، وضمان بقائهم، إذ تعتبر اللغة القومية هي أرومة العِزة ومنبت الأصالة.

ولا يمكن لهذا الغرس أن ينمو، ولا لهذه النبتة أن تينع إلا إذا تُعُهِّدت بماء المكرُمات، وغُذيت من معين الفضيلة الصافي، الذي لم تُكَدِّره دِلاء الحداثة والتغريب والاستلاب.

ولا يتأتى ذلك إلا باستلهام معاني قيمنا الإسلامية والعربية من منابعها الأصلية، المتمثلة في القرآن والسنة وأشعار العرب وحِكمهم وأقوالهم المأثورة.

فبالتشبع بهذه القيم تسترجع الأمة العِزة القومية المفقودة، التي هي الثغر الذي استطاع أعداء الأمة العربية والإسلامية أن يدخلوا منه لزعزعة هويتنا، وطمس معالم ثقافتنا، ومن ثم سلبنا أدنى مستويات السيادة في شؤوننا العربية على كافة المستويات: الثقافية والاقتصادية، فضلا عن السياسية.

VI. خاتمة

عرضنا في هذا المقال لنشأة النحو في أحضان مدرستي البصرة والكوفة، على أيدي رجال ساهموا بشكل أو بآخر في ترسيخ دعائمه، ووضع أسسه وقواعده، حتى استوى على سوقه، وبلغ إناه. فاكتمل فنضج فاحترق، حسبما مر بنا في ثنايا البحث.

فتبين لنا من خلال ذلك أن اللغة غنية بقدراتها الذاتية، تحمل في طياتها عناصر القوة، وآليات الصراع على مرّ العصور. ودليل ذلك أن اللغة العربية المتكلَّمة اليوم (٢٠٠٥م)، هي نفس اللغة – في معظمها – التي كان يتكلمها العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. وأن النحو العربي في ثوبه الحالي هو نفس النحو الذي وضع أسسه أبو الأسود الدؤلي بإيعاز من علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ولا يُعرف نحوٌ للغة في العالم – حسب المصادر المتاحة حاليا – ولا لغةٌ كان لهما مثل ما لهذه اللغة من الخصائص على المستوى المعجمي أو النحوي أو الصرفي.

أما بقاء اللغة العربية متماسكة البنية، متماسكة الأصوات، لم تتأثر على مدى أزيد من ألف وستمائة وخمسين سنة – حسبما تسعفنا به المصادر التي تعنى بتأريخ علم اللغات – رغم احتكاكها بمختلف لغات العالم – فَيُعدُّ من قبيل الإعجاز، لا من قبيل الصمود وصلابة اللغة.

فلو نظرنا إلى تطور أي لغة من لغات العالم الحية، لتبين أن لغة القرن التاسع عشر – مثلا – تختلف اختلافا كثيرا عن لغة القرن العشرين، أما لغة القرن الثامن عشر وما قبله، فهي اليوم في عِداد اللغات الميتة أو المهجورة.

فاللغة العربية إذًا تحمل خصائص توليدية واشتقاقية – رأينا نماذج منها عند ابن جني وابن فارس – تجعل منها معينا متجددا، قادرا على صهر الموروث المعجمي القديم لتوليد مفردات جديدة، تحمل جينات وخصائص قابلة للتوليد من جديد ... وهكذا، على عكس ما يرميها به أعداؤها من عجز عن مسايرة المستجدات العصرية.

وعلى هذا يمكن القول إن المشاكل التي تعاني منها اللغة اليوم ليس مَرَدُّها إلى اللغة نفسها، وإنما مردها إلى ضعف أبناء اللغة:

١ – ضعف في الوسائل الفنية: إذ لا يتوفر القائمون على التعليم اليوم على الوسائل

التقنية ولا التربوية لتطوير مناهجهم ومقرراتهم ووسائلهم التعليمية. فما زال التعليم في العالم العربي يعتمد على السبورة، دون الاستفادة من الوسائل اللوجستية الحديثة: الحاسوب، شاشات العرض، التعليم عن بعد (الجامعات الافتراضية univercites vertuelles)

٢ – ضعف في وسائل الإعلام والنشر: ففي تقرير التنمية العربية لسنة ٢٠٠٣م، أن عدد الصحف في البلدان العربية يقل عن ٥٣ لكل ١٠٠٠ شخص، مقارنة مع ٢٥٨ صحيفة لكل ١٠٠٠ شخص في البلدان المتقدمة.

ويعاني البحث العلمي من انخفاض الإنفاق عليه، وغياب الدعم المؤسسي، فلا يتجاوز الإنتاج العربي في مجال الكتب ١,١٪ من الإنتاج العالمي، رغم أن العرب يشكلون ٥٪ من عدد سكان العالم.

٣ – ضعف حركة الترجمة: فقد كان متوسط الكتب المترجمة لكل مليون شخص من العرب في السنوات الأولى من الثمانينيات يساوي ٤,٤ كتاب، أي أقل من كتاب واحد كل سنة، بينما بلغ ٥١٩ كتابا في المجر، و ٩٢٠ كتابا في إسبانيا، كما أن الكتب المترجمة إلى اللغة العربية منذ بدأت حركة الترجمة في عهد المأمون بن هارون الرشيد وحتى اليوم لا تتجاوز ١٠٠٠٠ كتابا، وهو نفس العدد الذي يترجم إلى اللغة الإسبانية سنويا، مع الإشارة إلى أن الترجمة تعدّ اليوم من أهم الروافد العلمية للحضارات المتقدمة.

٤ – ضعف العامل الاقتصادي: ويعدّ أهم هذه العوامل، إذ يترتب عليه الصرف والإنفاق ومستوى الدخل للفرد. وقد نجم عن انخفاض مستوى الدخل في الوطن العربي تنامي ظاهرة هجرة العقول العربية، إذ يقدر عدد الجامعيين العرب المهاجرين إلى أوروبا وأمريكا عام: ١٩٩٥/١٩٩٦ بـ: ٧٥ ألفا، وعدد الأطباء المهاجرين بين العامين ١٩٩٨ و٢٠٠٠ حوالي ١٥ ألف طبيب.

٥ – ضعف في الإرادة: وهي أُمُّ الباب وبيت القصيد، فقد أصبح العرب – في مخيلة الآخر – رمز التبعية والخناعة، وعنوان التخلف والضراعة، وهو ما جعلهم في مؤخرة الركب الحضاري، لا يتبوأون مركز الصدارة إلا في معرض الحديث عن الإرهاب، وانتهاكات حقوق الإنسان، والتطرف ... إلخ

وإن نظرة عجلى في تقارير التنمية العربية لتعكس لنا حال العرب المزري بالمقارنة مع

الشعوب المتقدمة، ومردُّ كل ذلك إلى تخليهم عن أسباب عِزَّتهم، ومناط قوتهم، التي لخصها عمر بن الخطاب بقوله: "إنا أمة أعزنا الله بالإسلام فلو طلبنا العزة في غيره لأذلنا الله".

وأخيرا – في ظل هذا التخلف العربي الملحوظ على كافة المستويات – أما يحق لنا أن نطرح على أنفسنا هذه الأسئلة، كي تسهم في محاولة استجلاء واقعنا اللغوي بشكل خاص، والثقافي والاجتماعي والاقتصادي بشكل عام: هل قُدّر لنا أن نجد أنفسنا – في بداية الألفية الثالثة – عالة على موائد الآخرين، نأخذ عنهم العلم ونستعيده بلغتهم؟

أما آن لنا أن نصنع خبزنا بأيدينا، ونتحول من النقل إلى الفعل، ومن الاستهلاك إلى الانتاج، ومن الاتّباع إلى الإبداع، ونحرر عقولنا وألسنتنا لنكون إلى جانب الآخر لا خلفه؟.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قائمة الهوامش

(١) لمزيد من التوسع في هذا الموضع، راجع د. بن عيسى طاهر: الدور الحضاري للعربية في عصر العولمة.

(٢) الزبيدي: طبقات النحويين، ص ٣١.

(٣) قال فيهما الخليل بن أحمد منوها بشأنهما:

ذهب النحو جميعا كلُّه ... غير ما أحدث عيسى بن عمرْ

ذاك إكمال وهذا جامع ... وهما للناس شمس وقمرْ

وهما بابان صارا حكمة ... وأراحا من قياس نظرْ

(٤) راجع: د. محمد المختار ولد اباه: تاريخ النحو العربي، ص ٦٧.

(٥) تاريخ النحو العربي، ص ٨٦.

(٦) الأنباري: نزهة الألباء، ص ٤٨.

(٧) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، ص ٥٤.

(٨) د. شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص ٩.

(٩) لمزيد من التوسع في هذه النظرية، يرجع إلى: أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة (المقدمة) ٣٩/١.

(١٠) راجع الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي ود. ابراهيم السامرائي، مقدمة التحقيق ٦٨/١.

(١١) راجع الخليل بن أحمد: كتاب العين ٧٨/١، تحقيق د. هادي حسن حمودي، ط: خدمات الإعلان السريع ١٩٩٤، غير محدد مكان الطباعة.

(١٢) تهذيب اللغة ٣٥/١.

(١٣) راجع تهذيب اللغة، باب أحياز الحروف ٤٠/١.

(١٤) راجع مقدمة التهذيب ١٠/١، ولم أقف على هذا الكلام في غير التهذيب، وتاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص٨٢.

(١٥) راجع النحو العربي في المشرق والمغرب، ص٨٦، ود. مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص ٣٢٥-٣٧٦.

(١٦) ديوان امرئ القيس، ص ٢٥، ولسان العرب (زمل).

(١٧) الزجاجي: الإيضاح، ص٦٥.

(١٨) إضافة إلى بعض مؤلفات الخليل الأخرى مثل: "تفسير حروف اللغة" و"العروض" و"النقم". راجع: السيوطي: بغية الوعاة ٥٥٧/١.

(١٩) تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص ٨٩.

(٢٠) راجع مقدمة تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون لكتاب سيبويه، ص ٣٦ – ٣٨، فقد استوفى أسماء هذه الشروح.

(٢١) نفس المصدر ص٣٨ –٣٩.

(٢٢) راجع السيوطي: بغية الوعاة، ص ٥٧، ٦٣، ٧٥، ٨٠، ٨٤، ١١٦، ١٨٠، ٢٨١، ٣٨٨، ٤٠٦، ٤٢١.

(٢٣) المصدر السابق، ص ٤١.

(٢٤) راجع تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص ١٥٨.

(٢٥) راجع الزبيدي: طبقات النحاة، ص ٢١٩.

(٢٦) لمزيد من التوسع في الموضوع، راجع تاريخ النحو العربي ص ٢١١.

(٢٧) السيوطي: بغية الوعاة، ص ٦٠١/١.

(٢٨) السيوطي: بغية الوعاة، ص ٢٠٤/٢.

(٢٩) معجم الأدباء ص ١٥٨٨.

(٣٠) سر صناعة الإعراب ١٣/١.

(٣١) راجع اللسان مادة (بنس).

(٣٢) راجع مقدمة تحقيق د. عبد الحميد هندواي للخصائص ١٠/١، وتاريخ النحو العربي، ص ٢٣٥.

(٣٣) ابن جني: الخصائص ٥٠٥/١، تحقيق د. عبد الحميد هندواي.

(٣٤) باب بناء الأفعال التي هي أعمال تعدّاك إلى غيرك ٥/٤، وباب ما جاء من الأدواء على مثال وجِعَ يوجع وجعا وهو وجيع لتقارب المعاني، راجع الكتاب ٤/ ١٧، و ٦٤٩/٣-٦٥٠ و ٥/٤-٨ و ١٤/٤-١٧.

(٣٥) ابن جني: الخصائص، ٥٠٥/١، باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني.

(٣٦) الخصائص ٥٠٩/١.

(٣٧) الخصائص ٥١٠/١.

(٣٨) الخصائص ٥١٢/١.

(٣٩) نفس المصدر ٥١٢/١-٥١٣.

(٤٠) الخصائص ٥١٣/١.

(٤١) الخصائص ٤٩٠/١.

(٤٢) أبو بكر محمد بن السري بن سهل بن السراج البغدادي، من أجل علماء النحو في عصره. أول من رتب مسائل النحو ترتيبا منطقيا، وبوّبه تبويبا منهجيا حتى قيل فيه: "إن النحو كان مجنونا حتى عقله ابن السراج". له كتاب "الأصول في النحو"، مطبوع بمؤسسة الرسالة، تحقيق د. عبد الحسين الفتحي.

(٤٣) الخصائص (مقدمة المؤلف) ٥٦/١.

(٤٤) راجع ابن جني: سر صناعة الإعراب (المقدمة).

(٤٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣٥/١-٣٦.

(٤٦) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ٨١/٤.

(٤٧) راجع د. محمد مصطفى رضوان: العلامة اللغوي ابن فارس الرازي، ص ٧٩ - ٢٠٣، ط: دار المعارف - مصر بلا تاريخ.

(٤٨) راجع ابن فارس : مقاييس اللغة، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون (مقدمة التحقيق)، ٣٩/١.

(٤٩) سنتعرض لطريقته في ترتيب معجمه بشكل أوسع في كلامنا على كتابه (مجمل اللغة)، بحول الله.

(٥٠) وعبارته كما في الجمهرة ٢٨٠/٢ "والعدك لغة يمانية زعموا، وهو ضرب الصوف بالمطرقة".

(٥١) راجع مقاييس اللغة (مقدمة الناشر) ٣٩/١، وراجع مادة (تبن) و (جعل) من المقاييس.

(٥٢) مقدمة كتاب مجمل اللغة.

(٥٣) ابن فارس: مجمل اللغة (مادة جرض)، دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان، وراجع نفس المرجع (مقدمة التحقيق) ٣٤/١-٣٦.

(٥٤) للتوسع في هذا الموضوع، يرجع إلى كتاب مجمل اللغة (مقدمة المحقق) ١/٣٦-٣٩.

(٥٥) مجمل اللغة (ضف).

(٥٦) مجمل اللغة (مقدمة كتاب الحاء).

(٥٧) راجع مجمل اللغة (أتن) و (حنق).

(٥٨) مجمل اللغة (طرز - قبح - خون).

(٥٩) التوقيف: هو حكم الشارع المتعلق بالشيء، أي أن اللغة إلهام وتوقيف من الله إلى الخلق، ولا دخل للبشر فيها، ويقابل التوقيف، الوضع والاصطلاح: وهو ما تواضع عليه الناس واصطلحوا.

(٦٠) راجع ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة ص ٣٦-٣٨ (بتصرف).

(٦١) الصاحبي ص ٤٩.

(٦٢) أي أنها تؤخذ اعتيادا، كالصبي من أبويه، وتلقُّنا من ملقن، وسماعا من الرواة الثقات، راجع الصاحبي ص ٦٤.

(٦٣) نفس المصدر ص ٦٦.

(٦٤) أي أن كثيرا من لغة العرب لم يدوّن، وإنما ذهب بذهاب أهله، الصاحبي ص ٦٧.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٦٦) أي الحروف التي يجوز تواليها في الكلمة، والحروف التي لا يجوز تواليها.

(٦٧) أي نقل الكلمة من معناها الوضعي (اللغوي) إلى معنى شرعي، أو فقهي، أو سياسي ... وقد عقد ابن فارس بابا للمجاز النقلي تحت عنوان "باب الأسباب الإسلامية"، الصاحبي ص ٧٧.

(٦٨) وهو أن تنحت (تركب) من كلمتين كلمة واحدة، كعبشمي من عبد شمس.راجع الصاحبي ٢٦٣.

(٦٩) الصاحبي (مقدمة المؤلف)، ص ٣٥.

(٧٠) راجع د. صلاح الرواي: النحو العربي، ص ٦٧٦-٦٧٧.

(٧١) عمر بن محمد الأزدي الاشبيلي، أبو علي، من كبار علماء اللغة. من مؤلفاته: القوانين، وشرح المقدمة الجزولية، وحواشي على المفصّل (ت ٦٤٥هـ). وفيات الأعيان ٣/٤٥١ - ٤٥٢، تحقيق إحسان عباس، ط: دار صادر، بدون تاريخ.

(٧٢) راجع تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص ٣٨٤.

(٧٣) راجع مقدمة تحقيق تسهيل الفوائد ١/٦، تحقيق محمد عبد القادر عطا وطارق فتحي السيد، ط: دار الكتب العلمية، ط: الأولى - ٢٠٠١.

(٧٤) أحصى المستشرق الألماني بروكلمان تِسعةً وأربعين شرحا للألفية في كتابه "تاريخ الأدب العربي" ٥/٢٧٨ - ٢٩١.

(٧٥) ابن الناظم: يطلقه النحاة على ولد ابن مالك، وهو من النحاة النابهين الذين شرحوا الخلاصة (الألفية)، واللامية (لامية ابن مالك في تصريف الأفعال) لأبيه ابن مالك، وربما اعترض أو استدرك على أبيه بعض المسائل، مما يدل على طول باعه في النحو من جهة، وأمانته العلمية من جهة ثانية، إذ لم يمنعه حقا الأبوة والمشيخة من إظهار الحق متى بدا له أن أباه حاد عنه.

(٧٦) أبو حيان: البحر المحيط، ١/١٠٦.

(٧٧) راجع تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص ٣٨٦.

(٧٨) نشره محمد فؤاد عبد الباقي.

(٧٩) الأعلام للزركلي ٧/١٣٥.

(٨٠) راجع تاريخ النحو العربي، ص ٤٠٣-٤٠٦.

(٨١) السيوطي: بغية الوعاة ٢/١٣٤.

(٨٢) الزركلي: الأعلام ١/٩٤-٩٥.

(٨٣) الزركلي: الأعلام ٤/١٤٧، وراجع علي فودة نيل: ابن هشام الأنصاري، آثاره ومذهبه النحوي.

(٨٤) له رسالة سماها "فوح الشذا بمسألة كذا" يرد بها على كتاب أبي حيان "الشذا في أحكام كذا"، يصف كتابه هذا بأن الناظر فيه لا يحصل منه بعد الكدّ والتعب إلا على الاضطراب والشغب، ويخطئه في مواضع كثيرة، خالف فيها رأي ابن مالك. راجع تاريخ النحو العربي، ص ٤٠٧-٤٠٨.

(٨٥) الزركلي: الأعلام ٤/٩٤.

(٨٦) السيوطي: بغية الوعاة ١/٥١٧.

(٨٧) راجع جمال الدين الأسنوي: الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول الفقهية ص ١٤٦، ١٨٩-١٩٠، تحقيق د. محمد حسن عواد، ط: ١، دار عمان للنشر والتوزيع/ الأردن ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٨٨) تاريخ النحو العربي، ص ٤٤٠.

(٨٩) راجع أحمد زين: اللغة المتخنة، موقع "كوكل" بالإنترنت.

(٩٠) لمزيد من التوسع في هذا الموضوع، راجع د. أحمد بن محمد الضبيب: اللغة العربية في عصر العولمة.

(٩١) لمزيد من التوسع في هذا الموضوع، راجع د. أحمد بن محمد الضبيب: اللغة العربية في عصر العولمة.

(٩٢) راجع سلسلة عالم المعرفة الكويتية، العدد ٢٦٥، يناير ٢٠٠١، د. نبيل علي: الثقافة العربية وعصر العولمات.لغتنا العربية في خطر، ص ٥٨.

ثبت بأسماء المراجع والمصادر

- ابراهيم أحمد الفارسي: أبعاد حضارية وضرورات حاضرة في تعليم اللغة العربية لأبناء العالم الإسلامي، مجلة التجديد السنة الخامسة، العدد: التاسع.
- ابن السكيت (يعقوب بن إسحاق): إصلاح المنطق، شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف – مصر، ط: ١، ١٩٨٧م.
- ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني): سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقّا وآخرين، دار الحلبي بلا تاريخ.
- ابن جني: الخصائص، تحقيق د. عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- ابن خلكان أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر – بيروت، لاط، لات.
- ابن دريد (محمد بن الحسن): جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت – لبنان، ط: ١، ١٩٨٧م.
- ابن فارس : مقاييس اللغة، تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت – لبنان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م..
- ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق د عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف – بيروت – لبنان، ط:١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ابن فارس: مجمل اللغة، دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، ط:٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ابن مالك: تسهيل الفوائد، تحقيق محمد عبد القادر عطا وطارق فتحي السيد، ط: درا الكتب العلمية، ط: الأولى ٢٠٠١م.
- ابن منظور الإفريقي (محمد بن مكرم) لسان العرب، دار صادر، بيروت – لبنان، لاط، لات.
- أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم، القاهرة، ١٩٥٥م.
- أبو حيان: البحر المحيط، ط: مطبعة السعادة، بدون تاريخ.
- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة، إشراف محمد عوض مرعب، ط: الأولى: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١، مطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.
- أحمد بن محمد الضبيب: اللغة العربية في عصر العولمة، ط: الأولى – مكتبة العبيكان – الرياض ٢٠٠١ –م.
- أحمد زين: اللغة المتخنة. موقع"كوكل" بالإنترنيت
- الأنباري (كمال الدين): نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم، دار النهضة، مصر – الفجالة – بلا تاريخ.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران ١٤٠٩هـ.
- الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر، بلا تاريخ.
- الزجاجي: الإيضاح، تحقيق د مازن المبارك، دار النفائس، بيروت – لبنان، ط ٣، ١٩٧٩م.
- الزركلي: الأعلام ، ط: ٦، دار العلم للملايين – بيروت/ ١٩٨٤م.
- الزركلي: الأعلام ط:٣، دار العلم للملايين – بيروت – لبنان ١٩٧٩م.
- الزركلي: الأعلام، ط: دار العلم للملايين – بيروت، ط: ٣/١٩٧٩م.
- السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، دار السعادة، ١٣٨٠هـ.
- السيوطي: بغية الوعاة، ط: عيسى البابي الحلبي – القاهرة، ط: ١/ ١٩٦٤م.

- القفطي (علي بن يوسف): إنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق أبي الفضل ابراهيم، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت - لبنان، ط: ١، ١٩٨٦م.
- اللغة العربية والوعي القومي، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية (ندوة فكرية شارك فيها مجموعة من الباحثين)، ط: الثانية/ ١٩٨٦م، بيروت - لبنان.
- امرؤ القيس (ديوانه الشعري)، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر، ط:١، ١٩٥٨م.
- أمين محمد فاخر: ابن فارس اللغوي: منهجه وأثره في الدراسات اللغوية،
- بن عيسى طاهر: الدور الحضاري للعربية في عصر العولمة، منشورات جمعية حماية اللغة العربية بالشارقة، ط: الأولى ٢٠٠١.
- تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام: ٢٠٠٣، نحو إقامة مجتمع المعرفة - المكتب الإقليمي للدول العربية، الأردن - المملكة الهاشمية، ٢٠٠٣.
- سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة عالم الكتب - بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٠٣/١٩٨٣م.
- شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف - القاهرة ١٩٧٢م.
- صالح بلعيد: اللغة العربية رهانات وتحديات - مجلة التعريب، العدد الحادي والعشرون، حزيران / يونيو ٢٠٠١م.
- صلاح الرواي: النحو العربي: نشأته، تطوره، مدارسه، رجاله، ط: دار غريب للطباعة والنشر، ١٩٩٩م.
- علي أبو المكارم: تقويم الفكر النحوي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥م.
- علي فودة نيل: ابن هشام الأنصاري، أثاره ومذهبه النحوي، ط: جامعة الملك سعود - الرياض: ١٩٨٥م.
- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمه إلى العربية د رمضان عبد التواب، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٧٤م.
- لغتنا العربية في خطر، منشورات جمعية حماية اللغة العربية - الشارقة، ط: ١/ ٢٠٠٠م.
- محمد المختار ولد ابّاه: تاريخ النحو العربي بالمشرق والمغرب، ط: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت - لبنان ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- محمد سعيد طالب: الحداثة العربية مواقف وأفكار، ط: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - سوريا، ط: الأولى ٢٠٠٣م.
- محمد مصطفى رضوان: العلامة اللغوي ابن فارس الرازي، ط: دار المعارف، بدون تاريخ.
- مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، منشورات المجمع الثقافي - أبو ظبي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- نبيل علي: الثقافة العربية وعصر العولمات، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، العدد ٢٦٥، يناير ٢٠٠١م.
- نعمة رحيم العزاوي: العربية المعاصرة والحس اللغوي، مجلة الذخائر، العدد الرابع، خريف ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، ط: دار صادر، بدون تاريخ.
- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، نشر وطبع الحلبي، بلا تاريخ.

Abstract

Arabic Language and Arabic Grammar: Major Junctions

By Dr. Shareef Ahmed

Studies done on the Arabic language and its current position are divided into main perspectives.

The first perspective: Those who call for the revival of Arabic language and praise its history and sacredness. This perspective is based on emotional slogans, nationalistic disagreements and looking at its strong past and believing that it contains elements of strength and techniques of conflict which will help it survive. The second perspective looks at the reality of the language now as a basis for its discussion. It looks at the modern challenges as a danger that must be confronted to shield the language which is considered as the last strong fort for the Arab and Islamic nation describing it as the language of the Quran, the translator of the Sunnah and the symbol of Arabic identity. The writer presents a third perspective which takes in aspects from both the previous perspective, presenting a remedial plan for the situation.